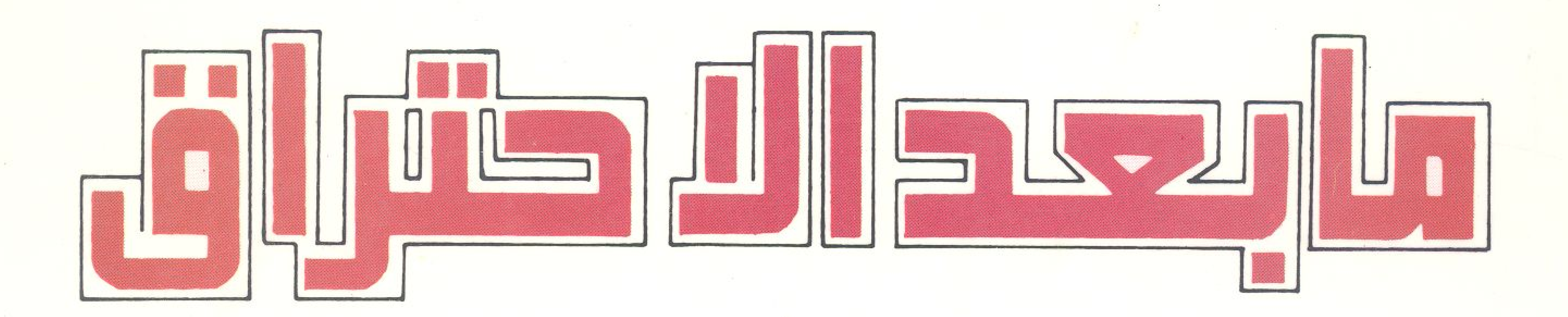
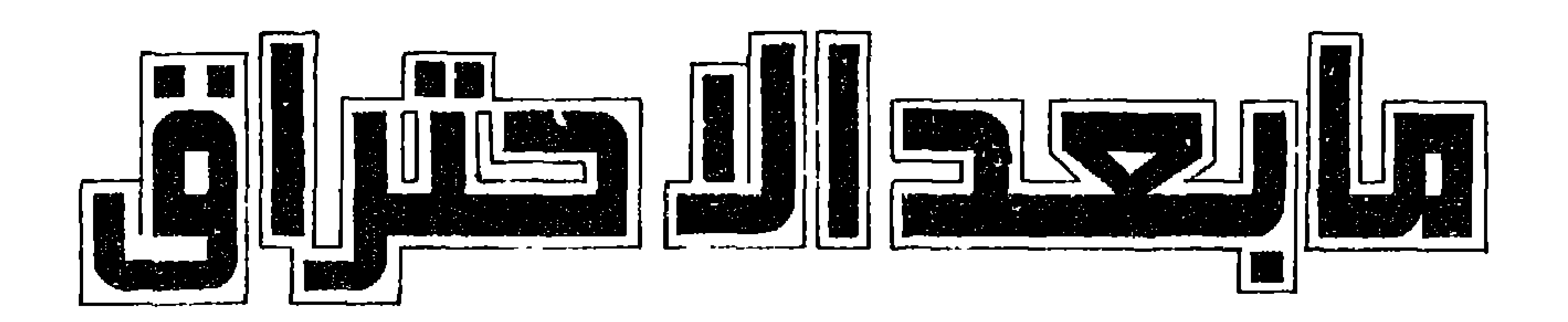
محمد قنديل بعاير



قصص

أفريقيا الشرق

محمد قنديل بعاير



قصص

أفريقيا الشرق

الإهـــداء

إلى الذي علمني صغيرًا ، ووجهني كبيرًا .
إلى روح والدي .

الإيـــداع القـــانوني : 784 1990

مقدمـــــــــــة

مازال أدبنا المغربي ، في حاجة ملحة الى مزيد من تسليط الأضواء على بعض جوانبه وشخصياته ، بالرغم من الجهود المشرفة التي بذلت وتبذل ، من أجل التعريف بمبدعينا ، ورد الاعتبار لمن غمط حقه منهم ، في مختلف مجالات الإبداع .

ولا تطمح هذه المقدمة الى أن تكون دراسة لمجموعتي القصصية الثانية (مابعد الاحتراق) . ولعل هذا ما جعلني أتردد كثيراً قبل أن أقدم على كتابتها . ولم يكن سبب ترددي راجعاً الى جهل أو عدم قدرة ، فما أسهل أن يكتب الانسان مقدمة ! ولكن لعلمي الوثيق ، أنه ليس من السهل ، كتابة مقدمة كاملة شاملة لعمل أدبي ، دون أن تعتورها ثغرات ، وتتخللها فجوات ، تفضي بها في النهاية الى أن تكون مقلة أو مخلة ، ولإدراكي العميق لمدى الصعوبات التي تقف في وجه الكاتب ، وهو يحاول «نقد» عمل من أعماله ، لعل أقساها أن يسقط – مهما احترز – في شرك المجاملات التي هي قاتلة لا محالة ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وخاصة إذا تدنت الى مستوى الكذب السافر .

لذلك فكرت في البداية ، أن أسند مهمة كتابة تقديمها ، الى بعض نقادنا الذين لهم غيرة على ثقافتنا المغربية ، والذين يكتبون بوضوح وموضوعية . إلا أن الظروف وكثرة المشاغل حالت دون تحقيق هذه الأمنية ، فعن لي أن أصدر مجموعتي هذه بدون أي تقديم .

غير أن ما أثار انتباهي ، وأنا منهمك في قراءة بعض المجموعات القصصية المغربية ، أن أدبنا المغربي ، يطرح كثيراً من القضايا والظواهر

والتساؤلات العامة والخاصة ، والتي قد تبقى معلقة دون حسم ، بالرغم مما قد يثار حولها من جدل ونقاش ونقد .

ويمكن اعتبار ظاهرة الفراغ الهائل الذي يصدمنا في حياة بعض الأدباء المغاربة قديماً وحديثاً - لدرجة أننا لا نعرف عنهم إلا النزر اليسير ، سواء تعلق الأمر بأخبارهم وتفاصيل حياتهم ، أو بمؤثراتهم الثقافية ، والظروف المحيطة بأعمالهم الأدبية - إحدى هذه الظواهر الملفتة للنظر ، حتى إننا لا نكاد نجد باحثاً أو ناقداً لم يتوقف عندها ، وينبه اليها ، ويشر اليها بأصبع اتهام.

ومن المؤكد أن هذه الظاهرة ، ترجع الى عدة أسباب ، قد يكون من بينها أن أولئك الأدباء ظلوا ينتظرون من يعرف بهم وبأدبهم ، اعتقادا منهم بأن الأديب ليس من حقه أن يتحدث عن نفسه ، لأن ذلك قد يكون مدعاة الى الانتقاص من قدره ، غير أن معاصريهم أهملوا ذكرهم لسبب أو لآخر ، الى أن زحف النسيان عليهم بظلاله .

وهناك من الأدباء المغاربة من تنبه بفطنته الى أن معاصريه سيهملون ذكره لامحالة ، فبادر الى التعريف بحياته ، وتسجيل وتوضيح كل ماله علاقة بأعماله الأدبية في ثنايا مؤلفاته .

لذلك حرصت أشد الحرص ، على كتابة هذه المقدمة التي لا أدعي فيها أنني سأكون ناقداً بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأنه لا يمكن للإنسان أن يكون «خصماً وحكما» في آن واحد ، ولكن حسبي أن أضع بعض المعالم على طريق هذه المجموعة .

ورغم إيماننا الشديد ، بضرورة وضع مثل هذه المعالم ، بالنسبة للكثير من الأعمال الأدبية المغربية ، حتى يزداد القراء معرفة بها ، وفهماً لظروفها

وأجوائها العامة ، فإن هذا لا يمنع من ظهور سؤالين ملحاحين مترابطين :

- هل يحتاج الكاتب الى من يعرف به ويأدبه ؟

- وهل من حقه - إذا لم يعرف به أحد - أن يعرف بنفسه ، ويضع علامات مرور على طريق القارئ ليستأنس بها ويسترشد ، أثناء قراءته لعمل من أعماله ؟

أعرف أن الكثيرين أحجموا عن خدش الذاكرة ، فتركوا الخوض في عوالمهم النفسية والفنية الخاصة للنقاد والباحثين ، بدعوى أنه من الصعب على الكاتب أن يتحدث عن نفسه ، والأصعب من ذلك أن يتحدث بكل موضوعية وصدق .

وأعرف كذلك أن الكثيرين حاولوا نبش الذاكرة ، فاقتحموا متاهات نفوسهم وتحدثوا عن مؤثراتهم الثقافية العامة ، وتجاربهم في الكتابة ، معللين ذلك بأن الكاتب عون للناقد ، ومرشد له في العديد من المواقف ، والأسرار والخبايا التي لا يعلمها إلا هو .

وبين هؤلاء وأولئك ، أرى أن الكاتب يتحمل مسؤولية كبرى - قبل غيره - في التعريف بحياته ، وتوضيح الظروف التي أدت الى ظهور أعماله الأدبية ، وجمعها وترتيبها ، ووضع الاطار التاريخي لها ، دون أن يتجاوز الحدود ، كأن يمدح نفسه ، أو يمجد أعماله ، لأن «عين الرضى عن كل عيب كليلة» ولأنه ليس من حقه الترامي على حقوق الآخرين ، فيغتصب بذلك حرية الفكر ، ويتجاهل رأي غيره ، لأن النقاد والباحثين من حقهم الإدلاء بآرائهم ، حتى ولو لم تعجب الكاتب ، شريطة الموضوعية والصدق .

ولكن ، ما أصعب أن تضع علامات مرور ، على طريق قارئ يتشوق الى الإقبال على القراءة كما يقبل رحالة مكتشف ، على جزيرة عذراء لم يسبقه أحد

اليها ، ويسير في مسالكها المجهولة التي لم يطأها قدم ، حتى يكتشف بنفسه هذه العلامات ، فيتذوق طعم القيادة ، ويستشعر حلاوة الريادة !

ذلك أن القراءة كتابة أخرى بطريقة ما ، لذلك فهي لا تعرف البراءة ، ولا تخلو من معاناة ولذة .

هي رحلة في عالم الخيال لا حدود لفضائها اللاّ متناهي ، ولحظة من لحظات التأمل تقرب في صفائها وشفافيتها من لحظات المناجاة والقداسة ، فلا عجب أن اعتكف مريدوها بمحرابها ، ولزموا خلوتها ، لا يريدون أن يعكر صفوها عليهم متطفل ، ولا أن يشغلهم عن عالمها متدخل ، حتى ولوكان الكاتب نفسه.

إذن بين يديك هذه القصص التي يجمع بين حبات عقدها خيط تاريخي واحد هو أنها كتبت في الثمانينات ، وبالضبط في الفترة الممتدة ما بين 1983 و 1988 باستثناء قصة واحدة هي (الباب الخلفي) كنت قد كتبتها سنة 1973، وقد بحثت عنها طويلاً ، لأسلكها ضمن مجموعتي القصصية الأولى (ويأتي بعدنا آخرون) التي أصدرتها على نفقتي سنة 1981 ، ولكنني لم أعثر عليها إلا مؤخراً ، فعز علي أن تبقى وحيدة خارج العقد ، لذا أدمجتها في هذه المجموعة.هذه القصص التي نشر أغلبها ببعض ملاحقنا الثقافية المغربية ، لم أرتبها ترتيباً زمنياً يساير تواريخ كتابتها ، بل عمدت الى ترتيبها ترتيباً فنياً نابعاً من حالة نفسية جديدة مغايرة ، ربما أملتها علي ظروف قد لا أهتدي الى تحديدها ، وإن كنت قد قصدت من وراء ذلك التنويع في الموضوعات ، حتى لا تسير على نغمة واحدة .

ومع ذلك فهي - القصص - لا تنتظم - في رأيي - في خط فكري واحد متكامل متميز ، ذلك أن لكل قصة ظروفها وملابسات كتابتها ، وبالتالي

فهي تعكس نظرة جزئية خاصة اتجاه حدث بعينه . ومن ثم فقد تنوعت موضوعاتها بتنوع أحداثها ، ومواقف أبطالها ، بالرغم مما قد يكون بينها من تقارب في الفكرة والتوجه العام وطريقة الكتابة ، نبعت كلها من مؤثرات خفية لا دخل لي فيها .حاولت أن أكون صادقاً مع نفسي وأنا أكتب هذه القصص .

ولا أقصد بالصدق هنا ، تلك الصفة الحميدة التي هي ضد الكذب . لأن الأدب بصفة عامة ، لابد له من هذا الكذب العذب كما يقال ، وهو الخيال الممكن الحدوث . إذ ليس المفروض في الكاتب لكي يكون صادقاً ، أن يتعرض بالفعل لآلام حقيقية حتى تكون كتابته حقيقية . صحيح أن هناك أدباء كباراً ، تعرضوا في حياتهم لآلام حقيقية ، غيرت نظرتهم الى الحياة ، وزادت أدبهم إبداعاً وخلوداً ، لدرجة أن منهم من ربط العظمة بالألم ، ومنهم من كان يلح على ضرورة تعرض الكاتب لآلام حقيقية ، حتى تكون تجربته حقيقية . ولكن ليس بالضرورة أن يعيش الكاتب شخصياً كل تجربة يريد أن يكتب عنها ، ما لم تجبره ظروف الحياة على معاناتها ، وإلا تحولت الكتابة الى جحيم حقيقي لا يطاق ، لأنه لا يمكن للكاتب - والحالة هذه - أن يقتل حقيقة ، حتى يكون صادقاً في كتابته عن جريمة قتل ! ولا أن يتعرض لخيانة زوجته ، حتى يكون أميناً في تصوير حوادثها.

وإذن فهذه القصص ، فيها المتخيل الذي بذلت مجهوداً في اصطياد موضوعه مما يحيط بي ، وفيها ما التقطته من الآخرين صدفة أثناء أحاديثي المختلفة معهم .

وعلى كل حال ، فلست البطل الحقيقي لكل هذه القصص ، لأنني لم أعش بالفعل كل تجارب أبطالها ، وإن كنت أطل بطريقة ما من بين سطورها ، وأقف

في فضائها الممتد ، فينعكس ظلي بشكل من الأشكال على أرضيتها .

كما أؤكد ، على أنني حاولت ما أمكن ، أن أكون محايداً ، وذلك بعدم فرض رأي معين على القارئ ، بالرغم من صعوبة الحياد في الكتابة . لست من أولئك الذين ينطلقون في كتابة قصصهم من ورقة بيضاء وقلم . بمعنى أن موضوع القصة ، وأحداثها وأبطالها وحوارها تأتي أثناء الكتابة . أنا لا أبني قصصي على فراغ فكري ، ولا على فضاء أجرد غير محدود ، خال من كل ما يشد الذهن ، بل أنطلق في كتابتها ، في غالب الأحيان ، من فكرة مسبقة تلتمع في ذهني – على حين غفلة – كومضة متوهجة خاطفة . فإذا ما أعجبت بها ، فإنها تكون بالنسبة لي ، كبذرة ترمى في تربة خيالي ، حيث تمكث هناك مدة من الزمن ، قد تطول وقد تقصر ، الى أن تختمر ، فيضيق بها وجداني ، فتتفجر سطح ذاكرتي ، وتظهر – من خلال أسطرها الأولى – على هيئة نبتة ضعيفة أتعهدها بالرعاية والتقويم ، الى أن تستوي نباتاً متميزاً ، يتخذ شكل قصة كاملة بحيث لو طلب مني – وقد انتهيت من كتابتها – أن أحذف منها أو أضيف اليها ، لما استطعت الى ذلك سبيلاً .

وحسب تجربتي ، فإن القصص التي أنطلق فيها من فكرة مسبقة ، تكون كتصميم قبلي ، تصبح كتابتها أمراً ميسوراً . وكمثال على ذلك قصة (أماه أريد أن أعود) فقد كتبتها في بضعة أيام ، فكأنما كنت أستقيها من ماء معين، أو أغرفها من بحر .

في حين أن القصص النادرة التي انطلقت فيها من ورقة بيضاء وقلم ، تعبت في كتابتها كثيراً مثل (الحصة الأخيرة) فكأنما كنت أخرجها من قمقم مرصود ، أو أنحتها في صخر .

أما بالنسبة للشكل ، فالظاهر أنني لم أستقر على شكل معين في كتابة هذه القصص ، إذ إن لكل قصة شكلاً مناسباً لها ، من الصعب تعليل سبب اختياره على غيره ، وإن كان واضحاً أنني حاولت ما أمكن تجاوز الشكل الكلاسيكي ببنائه المتعارف عليه في كتابة القصة . ولعل هذا ما يعكس حيرتي وقلقي، وبحثي المتواصل من أجل الاهتداء الى أشكال جديدة تساير اللحظة التاريخية، إذ المفروض في الكاتب مواكبة عصره ، ومسايرة القضايا الأدبية الرائجة فيه ، عن اقتناع لا عن اتباع . وهكذا فلا يمكن لكاتب القصة القصيرة - في رأيي - أن يستقر على شكل معين لا يبرحه الى غيره ، لأن ذلك سيسقطه لا محالة في التكرار الممل ، ولأن الكاتب في جوهره ، باحث مستمر، لا يتوقف عن التفكير باللغة ، والبحث عن أشكال ومضامين مناسبة لأحداث قصصه ، واتخاذ موقف من القضايا الأدبية والفكرية التي تواجهه .

إذن قد تعترضني أشكال متعددة لقصة واحدة ، فأسجلها جميعاً ، ثم أقوم باختزالها ، الى أن يستقر رأيي على شكل واحد نهائي ، أقتنع بأنه أكثر ملاءمة من غيره لهذه القصة أو تلك .

قد نختلف حول مفهوم الكتابة ، وحول الإجابة عن السؤال السهل - الصعب والقديم - الجديد : لماذا يكتب الكاتب ؟

ولعل سر الاختلاف ، يرجع الى مواقف المذاهب الأدبية المختلفة من مهمة الكاتب ودوره في المجتمع .

ومع ذلك فإن الكتابة - بالنسبة لي - «سم لذيذ» يتغلغل في أعماقنا الى أن يتمكن منا ، فلا نستطيع منه بعد ذلك خلاصاً . فإما أن يحيينا بالخلود ،، وإما أن يميتنا بالنسيان .

لذلك فليس ثمة شك ، في أنني كتبت هذه القصص تحت تأثير هذا «السم اللذيذ» لأرضي نفسي أولا ، وذلك بإشباع رغباتي المتعطشة للمتعة الفنية التي قد تصل الى هوس الكتابة .

وللتّعبير عن الصراعات النفسية الحادة التي يعاني منها أولئك الذين كتب عليهم أن يقاوموا تيار الحياة العنيف ، بما يتيسر لهم من وسائل ، دون رفع راية الاستسلام .

إلا أن إرضاء النفس ، غير كاف بالنسبة للكاتب - وإن تظاهر بذلك - لأنه يتطلع الى ماهو أبقى وأخلد ، بأن يشاركه الآخرون آراءه ، ويتعاطفوا مع أبطاله ، ومن ثم فهو يطمح الى السيطرة على قلوب القراء ، لينتزع إعجابهم به وتقديرهم له . وتلك لعمري مهمة صعبة ، لا يوفق فيها إلا كل كاتب مبدع عشق القصة ونال وصالها .

وما أقل من نال الوصال بالرغم من كثرة العشاق !

حاولت في هذه القصص ، أن أكون - قدر الإمكان - مصوراً لا ناقلاً ، على اعتبار أن القصة تصوير للحياة ، وليس نقلاً حرفياً لها ، لأن النقل لا يكون إلا لآلة فوتوغرافية .

وأما التصوير فيمر بذات الكاتب ، فيتفاعل معها بالزيادة أو النقصان ، حسب ما يتطلبه الموقف .

وحينما كتبتها ، لم أكن أضع نصب عيني طريقة معينة لكاتب معين أنسج على منوالها ، ولا أهتدي بهدي مذهب أدبي واحد معروف ، وإنما كنت أسجل الأفكار وهي تنثال علي في لحظات الاستغراق في الكتابة ، ثم أعالجها بالإعادة والتنقيح ، الى أن أطمئن الى صورتها النهائية ، وفيها ما فيها من رواسب قراءاتي المتنوعة من الأدب المشرقي والمغربي والفرنسي والمترجم من

الأدب العالمي . وما يرشح من كل هذا الشتات الفكري ، من مواقف خاصة واتجاهات معينة ، تنعكس على كتاباتي بطريقة عفوية ، قد لا أهتدي الى تحديد مصدرها الأصلي .

ومع ذلك فإن هذه القصص مستقاة من الواقع ، وإن لم تقع بالفعل بكل أحداثها في الواقع ، إلا أنها ممكنة الحدوث ، لأنها لقطات لزاوية من زوايا الحياة المتعددة الأشكال والألوان ، يضمها إطار الواقعية الذي صادف هوى في نفسي ، بالرغم من أنه فقد بعض بريقه وجاذبيته من كثرة الاستهلاك وتطاول العهد . إلا أن المذهب الأدبي ، ليس غاية في حد ذاته ، سواء استأنس به الكاتب أو تمسك ، وإنما هو وسيلة يتخذها من أجل توصيل كتاباته الى الآخرين، فلا عجب أن يستشف أكثر من مذهب أدبي في مجموعة قصصية واحدة .

وبعد ، فإذا كانت القصة القصيرة ، تثير الكثير من الاختلاف بين الكتاب والنقاد ، فإننا سنختلف لا محالة ، حول هذه القصص ، وقيمتها الحقيقية ، ومدى ترددها بين التقليد والتجديد .

فإذا وفقت في رحلتي الثانية هذه مع القصة ، فذلك هو أملي المنشود . وإلا فإن ما يشفع لي ، هو أنني حاولت أن أقدم قصصاً تعكس صورتي الحقيقية على مرآة الأدب شكلاً ومضموناً ، وتجارب ومواقف من بعض قضايا الحياة المختلفة ، منطلقاً في ذلك من تصوراتي الذاتية للقصة القصيرة التي قد تكون عادية ، ومعتمداً على مجهوداتي الشخصية التي قد تكون محدودة ، ومتشبثاً بذلك الشعاع من الأمل الذي يدفعني الى الأمام ، ويحثني على الاستمرار من أجل إلقاء عصا التسيار ، لأبدأ الرحلة من جديد .

القنيطرة في 16 أكتوبر 1989

محمد قنديل بعاير

أماه أريد أن أعود

انتبه الأب فجأة حينما أحس بأن السرعة قد بدأت تقل . صفع صوتُ المحرك مسمعَه بعنف ، فعاد الكابوس الثقيل يجثم بكل قواه على تفكيره . داهمه شعور حاد مبهم لم يفلح في تفسيره ، وظلت تتراقص أمامه صورة مهزوزة ، تجعله يتخيل كأنه قذف به من مكان عال في جوف بئر عميقة مظلمة. فتح عينين محمرتين تستقران في وجه عابس منتفخ ، ما تزال تظللهما سحابة إغفاءة خفيفة . مسح جبهته المبللة عرقاً بظاهر يده ، وتطلع الى العداد في الواجهة الأمامية ، ثم قال بصوت ضعيف مهزوم يعكس خوفاً داخلياً مركزاً:

- هل تنوي أن تتوقف ؟

- الشمس شديدة الحرارة في هذه المنطقة القاحلة .

- ألا تستطيع متابعة السير لفترة من الوقت ؟

- منذ الصباح ونحن نجري .. المسافة طويلة كما ترى .

- لقد اقتربنا ولم يبق سوى القليل .

- ولو .. المحرك سخن ، وأخشى أن يصاب بعطب .

لفهما الصمت من جديد . اعتدل الأب في جلسته . مد رجليه الى الأمام ، وعاد يلقي بنظراته التائهة من النافذة المفتوحة ، الى المنظر المهتز وسط ألسنة السراب الزرقاء المتموجة ، والذي تظهر خلاله الحقول السوداء المتشققة ، وهي تجري الى الوراء ، وقد تناثرت عليها قطعان عجاف ، بعضها يبحث عن بقايا أعشاب جافة مازالت متمسكة بحواف نتف من الدوم الأخضر ، وبعضها ينبطح تحت ظلال متفرقة لشجيرات سدر مغبرة ، في حين تمتد على مدى البصر كتل

صخرية رمادية ، تتخللها غابات موحشة تميل خضرتها الى السواد . ظل الأب يهتز في مقعده بين الفينة والأخرى ، وقد اعتاد على هذه الاهتزازات منذ أن تركوا الطريق الرئيسية المستوية ، وساروا في هذه الطريق الثانوية الضيقة القليلة الحركة ، الكثيرة الحفر ، وبقايا الوحل الجاف الذي حولته الشمس المحرقة الى ما يشبه الحجارة .

أفاق الأب من غفلته مرة أخرى ، على صوت السائق وهو يصيح بابتهاج مشيراً الى هناك :

- بئر .. انظر .. بئر ..

كان هناك رجال ينتظرون دورهم لأخذ الدلو ، وبهائم ترد الماء من حوض كبير ... خفف السرعة ، وانحرف يميناً في حقل أجرد مبتعداً عن الطريق ، ومخلفاً وراءه سحابة كثيفة من الغبار المتطاير ، الى أن أوقف السيارة تحت شجرة ضخمة وارفة الظلال ...

نزل السائق مسرعاً ، فرفع غطاء المحرك الأمامي ، ثم ثبته بقضيب حديدي . تصاعد لفح هوائي ساخن مشبع برائحة البنزين والدخان والاحتراق . حمل زجاجة فارغة واتجه نحو البئر ، بينما أسرع الأب يكشف غطاء الجهة الخلفية للسيارة ، ثم قال بصوت مضطرب :

- كيف هي الآن ؟

أجابته زوجته مُطَمْئِنة :

- هي نائمة كما ترى ..

كانت ممددة على بطانية غليظة تقيها الاهتزازات والصدمات ، ومغطاة بإزار أبيض جعل الأب يشيح عنه بنظراته ، كأن قوة خفية صدته عنه ، فقد ومضت

في ذاكرته لحظة نودي عليه باسمه ، فسار يضرب برجليه وسط حشد من الناس ينتظرون ، الى أن وصل الى غرفة مظلمة تضيئها شمعتان ، فأبصر جده مسجى في كفن أبيض ...

نظر الى زوجته ، وقال لها بنبرة خافتة :

- أخشى أن يشتد عليها المرض ونحن في هذا الخلاء .

- وماذا نفعل ؟ لقد بذلنا كل ما في استطاعتنا .

- لو لم يتوقف السائق لكنا قد أشرفنا على الوصول .

- لقد تعبنا من الركوب وصوت السيارة والاهتزازات .

نزلت الزوجة من الجهة الخلفية للسيارة ، ثم افترشت غطاء على الأرض الغبراء ، وتهاوت عليه وهي تنفث هواء ساخناً من فمها . نظرت الى زوجها وهو يجلس على جذع الشجرة العريض . تلاقت أعينهما .

قال لها وهو يهز رأسه :

- أشياء كثيرة غير مفهومة في هذه الحياة !

- هكذا أرادها الله أن تكون .

- ما يحيرني هو لماذا كل هذا التعب مادمنا سنموت ؟

- وماذا نفعل ؟ هل نقتل أنفسنا قبل أجلها ؟

- غير ممكن طبعاً .

- وهل نترك ابنتنا تموت أمامنا ؟

- مستحيل ! وإلا لما جئنا نبحث عن هذا الضريح البعيد .

ثم غيرت مجرى الحديث قائلة :

- دعني أنام قليلا ..

رآها تتمدد على الغطاء وتغمض عينيها . نهض وألقى نظرة عابرة على الإزار الأبيض . تراءت له خصلات شعرها ، وجانب من خدها الأصفر الشاحب.

اتجه نحو السائق الذي جلس على حافة الطريق بعدما سكب الماء في المبرد .

– الرجال في البئر أكدوا لي أننا اقتربنا .

– ما تزال بضع كيلومترات إذن .

– ممكن .. بالمناسبة لم تكمل لي قصة ابنتك المريضة .

أحس الأب كأنه هوجم على حين غفلة . قطب حاجبيه ، وضغط بأسنانه على شفته السفلى . هربت نظراته لتعانق الكتل الصخرية الرمادية التي تتخللها غابات موحشة ، غير أنه لم يفلح في طرد الصورة المهزوزة التي عادت تتراقص أمامه ، وتجعله يتخيل كأنه قذف به من مكان عال في جوف بئر عميقة مظلمة. قال وهو يحك جبهته المتفصدة عرقاً :

– حدث ذلك منذ ثلاث سنوات تقريباً ، وبالضبط عشية يوم أربعاء شديد الحرارة كيومنا هذا . كانت وحيدة في البيت ، فاستحمت بماء بارد في المرحاض، وحدث لها ما حدث . عافت الطعام إلا القليل منه . ثم أخذت تذبل شيئاً فشيئاً كوردة متفتحة حرمت من الماء . والأفظع من هذا أنها بدأت ترى ليلا كائنات غريبة مجللة بالسواد ، تزورها في فترات منتظمة ، وتظهر لها – كما قالت – في شكل قط أو خفاش أو إنسان ذي قرنين ... يراودها عن نفسها ، ويحاول ضمها اليه . فتصحو مذعورة ، وتنتفض فزعة منفوشة الشعر ، جاحظة العينين ، وتطأكل ما حولها كدابة مسعورة تحاول الهرب ، ونحن نمسكها ، ونتشبث بها الى أن يعود اليها هدوؤها كأن شيئاً لم يكن .

– منظر فظيع بالفعل .

- مهما وصفت لك فلن أستطيع نقل الصورة الواقعية .
- هل عرضتموها على طبيب ؟
- على أطباء ، غير أن حالتها ظلت تتدهور باستمرار .
- لم تفدها الأدوية ؟
- الحقيقة أن الأطباء لا يفهمون شيئاً في مثل هذه الحالات .
- الحاصل ، الله يسمح لينا من الوالدين .
- كم يتعب الآباء من أجل الأبناء !
- ثم يكبرون وينسون كل شيء .
- سنة الحياة ...

قال السائق بعد ذلك وهو يسدل غطاء السيارة الأمامي :

- هيا بنا فقد برد المحرك .

* * * *

بدأ البحر يتراءى في فترات متباعدة ، من بين فروج سيقان القصب الكثيفة، وحواجز التين الشوكي التي تقف سداً منيعاً على حافة الطريق الترابية المتحفرة، تختفي وراءها أشجار وبساتين خضراء .

هب نسيم بارد منعش ، فخفف من وطأة الشمس المتوهجة المضروبة في كبد السماء . ومالبث السائق أن صاح فرحاً :

- لقد وصلنا ...

استفاق الأب من إغفاءته الخفيفة ، فأحس بانقباض مفاجئ يعصر قلبه ، وداهمه ذلك الشعور الحاد المبهم الذي لم يفلح في تفسيره ، وعادت صورة البئر العميقة المظلمة المهزوزة تتراقص أمامه ، عندما لاح له الضريح الضخم بقبته

العالية ، يتربع وسط أسوار قديمة متهدمة مليئة بالفجوات المظلمة ، تحيط به آثار متناثرة لم تبق منها يد الخراب سوى جدران كالحة دكناء ، تطل من جنباتها أشجار تين مورقة ، ويتشمس عليها بوبريص مغمض العينين ، حتى إذا أحس بحركة زحف بسرعة واختفى في شقوقها العميقة ، في حين تظهر بقايا قبور بالية مبعثرة هنا وهناك تتسلقها أعشاب برية صفراء يابسة ...

هرب بنظراته عن مناظر الخراب الموحشة التي يزخر بها المكان ، وعاد يستأنس برؤية البحر وزرقته وأمواجه التي تتكسر على الشاطئ البعيد ، ثم انشغل بضجة الأطفال وهم يلاحقون السيارة ؛ مهرولين وسط سحب كثيفة من الغبار المتطاير الى أن توقفت أمام الضريح ...

نزل الأب بسرعة ، ورفع غطاء السيارة الخلفي . كانت مستيقظة وأمها تحاول لمّ شعرها المنفوش الذي تتدلى منه خصلات مشعثة على وجهها الأصفر البارز الوجنتين . عندما رأته حاولت أن تبتسم في حضرته ، غير أن الابتسامة خانتها فتحولت الى ما يشبه التكشيرة .

قال لها مشجعاً :

- كيف أنت الآن ؟

- أريد أن أعود الى بيتنا يا أبي .

- ستعودين اليه إن شاء الله صحيحة معافاة .

- رجلاي باردتان كقطعتي ثلج .

- هيا تشجعي .. تعالي معنا ..

حملوها على البطانية الغليظة ، ومروا بها في بهو فسيح معتم مكتظ بالنساء ، ثم أدخلوها قاعة واسعة تغمرها أضواء ساطعة ، يتوسطها تابوت

كبير مجلل بلحاف أخضر فضفاض . أجلسوها فلم تقو على الجلوس ، بل تمددت على ظهرها ، وشخصت بناظريها الى السقف ، ثم مالت على جنبها متأوهة شاكية منتحبة .

قالت لها أمها معاتبة :

- عيب ! الناس من حولنا ..

- أماه أريد أن أعود ...

- ستعودين يا ابنتي الى البيت .

- البرودة تقطع جسدي .

سكتت الأم عندما رأت رجلاً أشيب طويل القامة ، يرتدي جلباباً صوفياً أبيض يدخل القاعة ، ويتجه مباشرة نحو مكان ابنتها .

جلس بالقرب منها وهي ممددة على ظهرها . وضع يده على جبهتها ووجهها ويديها وقدميها ، ثم قال للأب بلهجة يخامرها شك :

صحيح ، إنها باردة كقطعة ثلج .. وهذه حالة نادرة ..

- كما شرحت لك يا سيدنا الفقيه .

قالت الأم بجزع ظاهر وهي تلمس جبهة ابنتها :

- البرودة تسري في جسدها كله .

ثم دفنت وجهها بين يديها منتحبة . سأل الأب الفقيهَ بإلحاح وخوف :

- هل يعني هذا أن حالتها خطيرة ؟

- علم ذلك عند الله .

انفجرت الأم باكية ، وانحنت تلثم يد الفقيه مغمغمة :

- يا سيدي الفقيه افعل شيئاً ، لا أريد أن تموت ابنتي هنا .

سحب الفقيه يده من يد الأم ، وقال متنهداً :

- نحن نسبب .. والأعمار بيد الله ..

وعاد الأب يسأل بإلحاح وخوف :

- وماذا ترى يا سيدنا ؟

- لابد لها من أن تصرع أولا ، ثم سنرى ما إذا كانت الخلوة ضرورية أم لا.

* * * *

جزعت الأم عندما شاهدت ابنتها تنتفض كشاة ذبيحة ، محاولة بيديها فك حصار خفي حول عنقها . قالت لزوجها مستغيثة :

- احضر لي ماء ...

تخطى الأب متعثراً أرجل الجالسين والنائمين ، ثم عاد مسرعاً بزجاجة ماء. ظلت الأم تحاول تقطير الماء في فم ابنتها ، غير أنه كان يسيل على وجهها وصدرها ، ثم أحست بها ترتخي فجأة ، وتشخص بعينين مقلوبتين في السقف، حاولت أن تعيدها الى وعيها ، ولكن رأسها ظل يميل في حركة لا تتغير . وما لبث صراخ الأم أن طغى على الأصوات المتداخلة التي تملأ الضريح ، ثم قامت تلطم وجهها وتضرب صدرها بيديها ، فامتدت عدوى البكاء الى نساء القاعة والبهو الفسيح ...

غادر الأب الضريح بعد ذلك ، وهو يمسح دموعاً صامتة تدحرجت على خديه. أسرع السائق نحوه متسائلاً :

- ماذا حدث ؟

- انتهى كل شيء ، ماتت زهرة ..

- لا حول ولا قوة إلا بالله ..

- المساء يقترب .. هل ستعود الآن الى المدينة ؟
- سأبقى معكم الى أن نعود جميعاً ...

* * * *

انطلقت السيارة ببطء ، متمايلة وسط الحفر التي تملأ الطريق الترابية . كان وهج الظهيرة يعشي العيون بلونه الفضي الناصع الذي يتلاشى في الفضاء الرحب ، ثم انحرفت يميناً ، وسارت بسرعة في الطريق الثانوية . كل شيء اختفى الآن .. الضريح .. الأسوار .. الآثار .. وبقي البحر يتراءى في فترات متباعدة ، من بين فروج سيقان القصب وحواجز التين الشوكي . ظل الأب صامتاً شارد النظرات ، يهتز في مقعده بين الفينة والأخرى ، ثم استسلم للاهتزازات وأغمض عينيه .

خيل إليه كومضة برق ، أنه مازال يحث السائق على الإسراع ، حتى يحمل ابنته في أقصر وقت الى الضريح . وكانت هناك صور مباغتة تحوم حوله وتهاجمه وهو يحاول طردها : السائق يمسح زجاج السيارة الأمامي يقول له وهو يحرك يديه علامة على النفي :

- ممنوع نقل جثة في سيارة نقل عادية .

الفقيه يرفع يديه ووجهه الى السماء قائلا بصوت أجش :

- العباد عباد الله ، والأرض أرض الله . كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقريتنا هي تربة ابنتك المكتوبة لها منذ أن ازدادت الى الدنيا .

قائد الناحية يرحب به ويستقبله في مكتبه ويؤكد له :

- النقل الرسمي سيكلفك مالاً كثيراً أنت في حاجة اليه . ادفنها هنا وزرها كلما سمحت لك الظروف . الناس دفنوا في مكة فأحرى هنا .

ظل الأب يرتجف ، وشفتاه تختلجان كأنما كان يطعن طعنات خفية متواصلة ثم استفاق فجأة على صوت السائق وهو يقول :

- البئر .. انظر .. البئر ..

- أرجوك توقف تحت الشجرة الضخمة .

وعندما نزل بسرعة ، ورفع غطاء الجهة الخلفية للسيارة ، أراد أن يقول :

- كيف هي الآن ؟ غير أنه لم يجد سوى زوجته وحيدة تبكي ...

دائرة ضوء في درب مظلم

الدرب الطويل المظلم يتمدد أمامك كتابوت قديم مهجور . الريح تصفر في جنباته الخاوية ، حاملة معها التراب وأوراق الأشجار اليابسة التي تدور حول نفسها في دوامة متواصلة .

صرير قصديرة متقطع فوق أحد السطوح ، يبدد هذا الصمت الثقيل . الأضواء الساطعة المنبعثة من الشارع الرئيسي ، تلقي ببقايا وهج أصفر ، يكشف - بعد طول تحديق - أبواباً ونوافذ خشبية قديمة مغلقة ، وجدراناً كالحة تقشر جيرها ، وطيف ليمونة باهت ، تطل بأغصانها المتشابكة من أعلى الحائط.

دائرة الضوء التي تتوسط الدرب ، تشد انتباهك : ذكرتك بالأضواء الكاشفة المتحركة التي رأيتها في بعض الأفلام الحربية ، عندما كان النازيون يسلطونها على الأسلاك الشائكة حتى لا يفر الأسرى من المعتقلات . لا أحد يستطيع أن يفلت من هذه الدائرة الكاشفة وهو يمر بهذا الدرب الضيق المظلم ، لأنها تتأرجح باستمرار ، كلما هبت نسمات الليل الباردة ، فحركت مصباح الكهرباء الذي يستقر على العمود الإسمنتي . فراشات سوداء تحوم حول المصباح ، تبعدها الريح العاتية ، فتعود بإصرار ، وتبدو في دائرة الضوء كطيور مهزومة الجناح تجاهد وسط تيار هوائي عنيف . الظلام يلفك من كل جانب . وهذه الزاوية المنعزلة التي تقبع فيها الآن ، والتي تخفيك عن عيون الآخرين ، هي مكمن محكم لإفشال المؤامرة التي تدبر في الخفاء . إذن فقد قررت هذه الليلة ، ألا يغمض لك جفن ، ما لم تتوصل الى الحقيقة التي لم يعد

يهمك ثمنها ، حتى ولو كان غاليا على حساب صحتك ووقتك وسمعتك . منذ أسبوع وأنت تتحرق شوقاً الى هذه الليلة ، بل والى هذه اللحظة بالضبط . لن تتزعزع من هنا . ستبقى واقفاً كوتد مضروب في قلب أرض صلبة ، لتفضح القذارة التي تلطخ البشر .

الى متى سيظل الحيوان أوفى من الانسان ؟ كثيرة هي الأشياء الصغيرة التي لا نهتم بها ، ولا نذكرها إلا لماماً ، ومع ذلك فهي قد تقلب حياتنا رأساً على عقب . من كان يظن أن مسماراً صدئاً مرمياً في الطريق ، سيحدث كل هذا الانقلاب في حياتك ؟ كنت قد انتهيت من عملك ، واتجهت نحو دراجتك النارية لتعود الى بيتك ، حينما اكتشفت أن العجلة الأمامية خاوية من الهواء . كانت الليلة ممطرة ، والطريق طويلة مظلمة خالية ، تتخللها الحفر وبرك الماء . لذلك قررت أن تعود مع سيارة ذاهبة الى المدينة ، وتترك الدراجة مقيدة في بهو الشركة . كان الدرب في تلك اللحظة خالياً تماماً من المارة ، يغلفه سكون عميق ، ورذاذ خفيف ينهمل على شعرك ووجهك . فجأة وقفت متيقظاً كمن هم بالخطو ، فرأى تحت قدميه هوة سحيقة لا قرار لها ، مستورة ببعض الأعشاب. تراجعت الى الوراء حتى لفك الظلام .

أرهفت سمعك ، فداهمك شعور غريب بأن هناك شيئاً ما يجري في الخفاء . لمع ضوء من الكوة العليا . سمعت مفتاحاً يدور في قفل . فتح باب الدكان . تردد صوت رجل خيل إليك أنك تعرفه :

– لا تبطئي علي .. الأسبوع المقبل ..

ثم أغلِق باب الدكان ، وأطفِئ الضوء ... لن تنسى أبداً تلك الليلة ، فقد رسمت أمامك علامة استفهام كبيرة ، وجعلتك تسقط في حبائل سؤال ملح.

فاغرفاه ، كحيوان خرافي يهاجمك باستمرار ، عله يلتهمك في أي لحظة : ترى من تكون تلك المرأة التي بدت لك في دائرة الضوء ، كحورية بيضاء تقفز مذعورة بين أمواج النور الى أن ابتلعها ظلام الدرب الحالك ؟

ليلتها وقفت جامداً مبهوتاً لا تدري ماذا تفعل . لم تكن تتوقع المنظر . خيل اليك أنك تحلم ، وأن ما رأيته هو نوع من تلك الكائنات التي لا ترى إلا ليلاً . غير أنك عندما سمعت بعد قليل مفتاحاً يدور بعصبية في قفل ، وباباً يفتح ويغلق ، تأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنها امرأة حقيقية . وبقي السؤال يعذبك : ترى من تكون ؟

في تلك الليلة ، عندما أدرت المفتاح في القفل ، أحسست باضطراب خفي يسري في كيانك . فقد خيل إليك أن الباب ربما فتح أثناء غيبتك . ذلك أنه من عادتك أن تدير المفتاح مرتين ، غير أنه هذه المرة لم يدر سوى دورة واحدة ، ثم انفتح الباب . وعندما دخلت الغرفة ، وأشعلت الضوء ، قالت لك ورأسها مدفون تحت الغطاء :

- هل أسخن لك عشاءك ؟

- ليست لدي شهية .

ثم أطلت عليك بشعرها المنفوش ، وعينيها المحمرتين :

- لم أسمع صوت الدراجة كالعادة .

- تركتها في الشركة .. عطب مفاجئ ..

اندسست الى جانبها في السرير ، فاستيقظ الاضطراب الخفي في داخلك . خيل اليك أن الفراش بارد فكأنما هجر من ساعات . وأنت الذي كنت تجده دائماً دافئاً ، وخاصة في مثل هذه الليلة الممطرة . ولكن لِمَ لا يكون وقوفك

في الركن المظلم من الدرب هو الذي جعلك بارداً كقطعة ثلج . كل شيء ممكن ... «هل خرجتِ من البيت ؟» كاد السؤال أن يطير الى أذنيها ، لولا أنك عدت فأطبقت عليه بشفتيك . ليس من طبعك أن تشك ، فالشك نار تأكل بصمت كل ما حولها ، وكم أحرقت من بيت ، وخربت من عش ... إذن فلا داعي للعجلة ، لأن الأيام وحدها كفيلة بفضح الزيف ...

الدرب الطويل المظلم ، مازال ممدداً أمامك كتابوت قديم مهجور . دائرة الضوء مازالت تشد انتباهك ، والفراشات السوداء مازالت تحوم بإصرار حول المصباح الكهربائي ، والرياح القوية مازالت تعصف ، فيسمع صرير قصديرة متقطع فوق أحد السطوح . الظلام يلفك من كل جانب . رذاذ خفيف بدأ ينهمل على شعرك ووجهك ، والأضواء المتباعدة تكشف نوافذ وأبواباً مغلقة . لو كنتَ جريتَ في الأسبوع الماضي ، وراء تلك المرأة التي رأيتها تقفز مذعورة في دائرة الضوء ، الى أن ابتلعها ظلام الدرب ، لكنتَ عرفت بالتأكيد الباب الذي واراها

أيتها الأبواب المغلقة ، كم تختفي وراءك من أسرار ومفاجآت ! وكم تتستر من عهارة وقذارة ! ترى هل يفتح الليلة ذلك الباب المجهول ، وتخرج منه تلك الأفعى ، فتعبر دائرة الضوء ، ثم تتوقف أمام دكان الخضار في زاوية الدرب ، وتطرق طرقات خفيفة ، فتفتح دفة الباب الحديدي الكبير ، وتغلق ويطفأ الضوء ... ما الذي سيحدث لو ووجهت بالحقيقة سافرة بدون حجاب ؟ ووقفت وجهاً لوجه ، أمام تلك المرأة المجهولة التي جعلتك تعيش في جحيم لا يطاق طوال أسبوع ، حتى إن المدير تشكك في تصرفاتك التي أصبحت تثير الانتباه . انتبهت من غفلتك . خيل إليك أن ضوءاً أشعل في مكان ما .

استيقظت حواسك ، وتحفزت لرصده من جديد . عاد الضوء يشعل ويطفأ .

تكررت العملية مرات وعلى فترات متقاربة . ماذا يعني كل هذا ؟ هل هي علامة سرية بينه وبينها ، بأن كل شيء على ما يرام ، وأن الوقت مناسب للمغامرة كالمرة السابقة ؟ أنت الآن كقناص متيقظ ، يضع أصبعه على الزناد مترقباً ظهور هدفه . الانتظار الطويل يفتت قواك ، والصمت العميق ينخر أعصابك . لابد لمن يتتبع آثار الحقيقة من أن يصبح كالمهوس يشك في كل شيء .

بالتأكيد ، هي قد أبصرت الضوء الذي لمع في الكوة ، من إحدى هذه النوافذ المغلقة . شيء ما يتحرك في الخفاء .. باب يفتح ويغلق برفق .. وقع خطوات تقترب .. كيف ؟ هي ذي تمرق بسرعة وسط دائرة الضوء .. تتوقف أمام الدكان .. تنقر نقرات خفيفة .. يلمع الضوء في الكوة .. تفتح الدفة وتغلق .. يطفأ الضوء .. أيتها الأفعى ، لن تفلتي الليلة من الفخ المحكم المضروب حولك .. ماذا لو هجمت عليها الآن لتفضح النذالة والقذارة ؟ ماذا لو أيقظت الدرب ليشاهد العاهرة ؟

ولكن مهلاً ، لا تتسرع ، دع الأمور تجري وشأنها . حذار أن تفسد خطتك التي كلفتك أسبوعاً كاملاً من الحيرة والتردد والسهاد ، لدرجة أن المدير تشكك في تصرفاتك التي أصبحت تثير الانتباه ... يوم وقفت أمام بابه المغلق ، ترددت كثيرا قبل أن تطرقه . سمعت نحنحة وصوتاً يقول :

- ادخل ...

كان جالساً الى مكتبه . وعندما رآك ، ترك القلم يسقط من بين أصابعه . أحسست لحظتها من نظرته الفاترة ، وتقطيبة حاجبيه ، أنه سيفضي إليك بكلام لن يكون في صالحك .

قال لك :

- اجلس .

- شكراً يا سيدي .

- ماذا هناك ؟

- زوجتي يا سيدي .

- ماذا حدث لها ؟

- مريضة ..

- وماذا تريد ؟

- غدا سأذهب بها الى المستشفى .

- هل وجدت من يعوضك ؟

- نعم ، وقد اتفقت معه .

وأنت تهم بإغلاق الباب لتنصرف ، قال لك متذكراً شيئاً نسيه :

- لقد لاحظنا أن الآلات أخذت تتوقف عن العمل .

- هذا شيء طبيعي .

- ولكنها لم تكن تتوقف من قبل .

- لست أدري ..

- لا تنس أن آلات النسيج تحتاج الى يقظة وانتباه .

حينما سرتَ في الممر الطويل ، أحسست بحرارة مباغتة تزحف على وجهك. تفصدت جبهتك عرقاً بارداً . غشيك دوار خفيف ، خلخل رجليك حتى كدت تسقط أرضاً . كان هناك صوت خفي يستنطقك كما لو كنت في قفص اتهام :

* لماذا كذبت على المدير ؟

- الناس كلهم يكذبون .

* زوجتك سليمة معافاة ..

- من لم يكذب لم يعش .

* كان عليك أن تصارحه ..

- لو صارحته كان سيرفض .

* ومن أدراك ؟

- كان سيفسد علي خطة رسمتها منذ أيام .

* لماذا لم تفكر في أكذوبة مناسبة ؟

- وماذا يهم ؟ فالكذب هو الكذب .

* قد يكون هذا فأل شؤم عليك .

- المهم عندي هو أن أصل الى الحقيقة .

في هذه اللحظة لمع الضوء من جديد . فُتحتْ دفة الدكان . سمعتَ الخضار يقول بصوت مضطرب :

- كالعادة عندما ترين الضوء .

فاجأك شعور مباغت بأن اللحظة التي ارتقبتها ، والتي خيل إليك أنها قد استمرت دهراً ، ربما ستضيع من بين يديك إن لم تحسن التصرف . هي ذي الأفعى تمرق الآن وسط دائرة الضوء .. تتوغل في ظلام الدرب بالتدريج ، حتى كادت تختفي عن ناظرك .. خرجتَ من مكمنك .. أسرعتَ الخطى .. جريتَ .. لحقت بها .. مازالت تقفز كظبية مذعورة ، وأنت في أعقابها .. توقفتْ أمام باب تعرفه جيداً .. اضطربت وهي تحاول فتحه بالمفتاح .. عندما أدركتها ، قالت لك مستنجدة :

- أرجوك ساعدني على فتح الباب ..

انغرس صوتها في مسمعك كخنجر مسموم .. شهقتَ .. يا إلهي هل صحيح أن ما يحدث الآن حقيقة ؟ .. لم تعرف بعد ذلك ماذا حدث بالضبط .. خيل إليك أنك تتخبط وسط حلم رهيب ، وأن يدك شرعت تضرب ، وتضرب بالعصا التي كنت تحملها معك .. ضربات عشوائية في الرأس والوجه والعنق .. انبعث بعدها صراخ حاد ، ثم تحول الى آهات .. ليسقط على إثرها شيء كالجسم أرضاً .. أضواء تشعل .. ضجيج أحذية مسرعة .. ناس يجرون من كل اتجاه ويتجمعون .. أحاطوا بك ، فتراجعت الى الوراء ، حتى صدك جدار بارد .. تركت العصا تسقط من يدك الملطخة بالدماء .. خانتك قدماك ، فتهاويت دفعة واحدة ككيس سقط من شاحنة .. ووسط هذه الأصوات المتداخلة، عاد الصوت الخفي يستنطقك كما لو كنت في قفص اتهام :

* قد يكون هذا فأل شؤم عليك .

- المهم عندي هو أن أصل الى الحقيقة ...

خدش بالباب

ينطفئ الضوء الذي يتوسط الدار . يُفتح باب ويُغلق محدثاً صريراً مألوفاً لديها . وقع خطواته وهو ينزل السلم الحلزوني يخف تدريجياً . يتردد السعال ثم يتلاشى . يعود الوقع فيتوهج في مسمعها من جديد ، عندما يمر تحت النافذة، ثم يتبدد كأن لم يكن ، ويلف الصمت كل شيء ...

استجمعتْ شتات نفسها . تململتْ في السرير . ألقت نظرة جانبية على حافته . الأنفاس الرتيبة المتلاحقة ، أنعشت قلبها بزخات من الاطمئنان المدغدغ. . كل ما حولها هادئ صامت ، لا يدعو الى هذه الهواجس المؤرقة التي تثقل صدرها وتكاد تخنقها ... «يا إلهي من أين تنبع هذه المخاوف المبهمة التي تقلب سعادتنا الفياضة ومضات برق خاطف ، وتذرو أحلامنا كرماد في مهب الريح ؟ ...» مالت على جنبها الأيمن . مدت يديها ورجليها على الجهة الأخرى من السرير . مكانُه ما يزال دافئاً . منذ لحظات كان ممدداً هنا ، وحينما أزاحت الغطاء من على صدرها ، وزفرت زفرات حرى ، هاجمها صوته على حين غفلة، وسط الظلام كأرواح شريرة مناوئة :

- منتصف الليل ولم تنامي ؟

- هرب النوم من عيني .

- صوتك فيه اضطراب .

- أوه ، لا شيء ..

داهمه السعال بعنف ، وبعدما تخلص منه تابع حديثه :

- هل أنت متعبة ؟

- ضيق في الصدر .

- لا تفكري في أي شيء .

- حاولت ولكن بدون جدوى .

- إذن فأنتِ مازلتِ تفكرين فيه .

ثم أولاها ظهره وغرق في الصمت ، وهو يكتم سعالاً دفينا حاول أن يطفو على السطح ... «ترى هل كنت السبب في كل ما حدث ؟ أم أن الأحداث همت وانسابت بصمت ، كقطرات مطر في منحدر ، ثم تجمعت من تلقاء نفسها، واندفعت في تيار جارف لم أستطع فعل أي شيء أمامه ، حتى وجدتني أقتلع من مكاني بعنف ، وأرمى بعيداً كمركب حطمته الأمواج المتلاطمة ، فتبعثرت نفاياته على الرمال ... »

في تلك اللحظة أضاءت الغرفة فجأة . أسرع فوضع الغطاء على وجهه . قال لها بصوت مخنوق سعالاً :

- لم أعد أحتمل ..

- الأنفاس انقطعت دفعة واحدة .

- إنك واهمة .

- لابد لي من التأكد ..

رمت الغطاء جانباً . قفزت من السرير . أزاحت الستارة بيد مرتجفة . انحنت عليه : دفء ممزوج برائحة حليب وعطور هف على وجهها ، والأنفاس الرتيبة المتلاحقة تنبئ أن كل شيء بقي كما كان . وقفت ساهمة لا تدري ماذا تفعل . هاجمها بعينين محمرتين كثور هائج :

- سعاد ! لا تنسي أن المحطة بعيدة .

- نعم .. نعم ..

- الوقت لا يرحم وربما فاتني القطار .

اندست الى جانبه بذلة ، كطفلة ضبطت متلبسة بمغامرة جنسية .

أطفأت الضوء . الليل ما يزال يلف المدينة بجناحيه ، كنسر أسطوري قديم والرياح مازالت تضرب النافذة ، نائحة كذئاب جريحة تحتضر «ما الذي كان سيحدث ، لو لم أفتح له الباب في ذلك الصباح ؟»

كان الجو مشمساً ، وكانت هي منشغلة في المطبخ ، حينما داهمتها أصوات، وضحكات ووقع خطوات ، تجري ثم تتوقف تحت النافذة المفتوحة . أطلت : جماعة من الأطفال ، يحملون العصي والحجارة ، محاولين اقتحام الباب الخارجي . عندما رأوها تهم بالنزول ، هربوا متسابقين ، ثم وقفوا عند نهاية الزقاق ينتظرون . بدأ الخدش خفيفاً ، ثم اشتد حتى أصبح مسموعاً . فتحت الباب : كان هزيلاً متعباً . شعره الأسود المنفوش المبتل ، قد تساقط حتى بدا جلده . نظر إليها بعينين مصفرتين ذابلتين . حاول الدخول . تذكرت زوجها فأغلقت الباب . عاد الخدش بالباب بحدة متناهية . ذهبت الى المطبخ معللة نفسها بأن الأمر لا يعنيها ، غير أن مخالبه التي مازالت تخدش ، كانت تعكس مدى خوفه واستعطافه . عادت ففتحت له الباب من جديد . قوس ظهره، ووجه إليها نظرات مستعطفة . وحينما أفسحت له الطريق ، دخل وهو يعرج جاراً وراءه هيكلاً هزيلاً ، تتخلله ضلوع نحيفة . عندما عاد في المساء ، نظر إليه مشمئزاً ، ثم قال لها باستغراب :

- من الذي أحضره ؟

- ساقه القدر الى بيتنا .

- ولماذا أدخلته ؟
- الأطفال كانوا سيقتلونه .
- ربما كان موبوءاً .
- اطمئن سأعتني به ...

انتبهت الى القطار ، وهو يمر مصفراً ومحدثاً ضجة عكرت صفو الليل . تململت في السرير . انقلبت على ظهرها . فتحت عينيها . تثاءبت بتثاقل . الظلام مازال يملأ الغرفة الواسعة . في السقف ترتسم خطوط ضوء ، أشعت من خصاص النافذة المغلقة ، ويزداد توهجها مع اقتراب الصباح ... كان يوم عطلة، وكان ممدداً بجانبها .. حدق في هذه الخطوط لحظات ، ثم قال لها بإصرار سابق :

- لقد تحسنت حالته كثيراً ..
- من ؟ (أشار بيديه ففهمت) قالت ضاحكة :
- تعني دولار ؟
- دولار ؟
- نعم هذا هو اسمه من الآن .
- ولماذا هذا الاسم ؟
- أنسيت أنك ترقيت في عملك ؟!

انتفض في مكانه وهو يكتم سعالاً ثقيلاً . قال لها محتجاً :

- لن يعيش معنا .
- أرجوك لا تكن قاسياً الى هذه الدرجة .
- لا تحاولي إقناعي .

- ولماذا ؟ أجابها متضايقاً :

- هل نسيت قصتي ؟

- ومن قال إن مابك راجع الى ...

أشاح بنظراته عنها ، ثم نبس بنبرة حزينة :

- قيل لي إنني كنت ألاعب قطاً وأنا طفل ...

لفهما الصمت .. ثم أردف :

- فكري في طفلنا ..

- وما العمل ؟

- سأحمله الى مكان بعيد ..

«ترى هل يعود ؟»

في ذلك الصباح ، حينما خرجت كعادتها الى السوق ، ومشت في ذلك الزقاق الطويل ، داهمت خياشيمها رائحة انقبضت لها نفسها ، ثم وقعت عيناها في زاوية مهملة من سور قديم متهدم ، على جثة قط متعفنة مردومة تحت أنقاض من الحجارة والعصي ، على اختلاف أنواعها وأشكالها . وحينما تبينتها أكثر عرفت أنها جثة دولار . ارتجفت وأحست بقلبها يغوص فجأة في أعماقها ، كما لو هوى من عل . ثم هاجمها حزن مباغت . وفي داخلها تموج السؤال : «ياإلهي أهكذا نصير بعد الموت ؟»

حاولت أن تجيب ، غير أن قوة مبهمة ، كإعصار جارف انتزعتها من مكانها ، فتابعت سيرها في الزقاق الطويل ، وهي تضم طفلها الى صدرها ، كأن يداً خفية ستخطفه منها ... أمامها كان دولار يقفز فوق الأريكة .. يجري وراء خيط .. يحاول الإمساك به .. يتموج ظهره عندما تمسح بيدها عليه ..

يتدفأ بالقرب من الموقد .. وترتج ذاكرتها بعنف .. تحاول طرد الذكريات .. تعود الذكريات بإلحاح كطيور جارحة ، تحوم حول فريسة بها بقية من حياة .. زوجها يلاعب دولار .. يحمله بين يديه .. يرميه داخل كيس .. يضع الكيس في قفة .. مواء مستعطف .. مخالب تخدش ...

ينطفئ الضوء الذي يتوسط الدار .. يفتح باب ويغلق محدثاً صريراً مألوفاً لديها .. وقع خطواته وهو ينزل السلم الحلزوني يخف تدريجياً .. يتردد السعال ثم يتلاشى .. يعود الوقع فيتوهج في مسمعها من جديد ، عندما يمر تحت النافذة ، ثم يتبدد كأن لم يكن .. ويلف الصمت كل شيء ...

احلام في عيون مفتوحة

لقد سبق أن اقترحت فى مكان آخر[1] أن الفرق الحقيقى بين المعنى (أو الفكرة) اللاشعورى والمعنى الموجود قبل الشعور إنما يتلخص فى أن المعنى الأول إنما ينشأ عن مادة تظل غير معروفة ، بينما يكون المعنى الثانى (الموجود قبل الشعور) بالإضافة إلى ذلك مرتبطاً ببعض الصور اللفظية . وهذه هى المحاولة الأولى لإيجاد فارق مميز بين هاتين المنظمتين ، قبل الشعور واللاشعور ، وذلك فيما عدا علاقتهما بالشعور[2]. ويبدو إذن أن هذا السؤال « كيف يصبح المعنى شعوريا ؟ » يمكن أن يوضع بطريقة أحسن على هذه الصورة : « كيف يصبح المعنى قبل الشعور ؟ » ويصبح الجواب هو : « بأن يرتبط بالصور اللفظية التى تتصل به » .

وهذه الصور اللفظية هى الآثار الباقية فى الذاكرة ، وقد كانت فى وقت ما إدراكات . وهى تستطيع مثل جميع الآثار الباقية فى الذاكرة أن تصبح شعورية مرة أخرى . وقبل أن نشغل انفسنا بطبيعتها أكثر من ذلك تتضح لنا

---

(١) « اللاشعور ، (١٩١٥) ، مجموعة المقالات ، الجزء الرابع » .

(٢) [يوجد فرق بين قبل الشعور واللاشعور من حيث علاقتهما بالشعور . فالفكرة الموجودة قبل الشعور تكون قريبة من الشعور ويمكنها أن تصبح شعورية بسهولة . أما الفكرة الموجودة فى اللاشعور فبعيدة عن الشعور وهى لا تصبح شعورية إلا بعد مجهود شاق] . (المترجم)

حينما دخل بقامته الطويلة ، وجد نفسه ينغمس وسط لغط غير متميز :

أصوات مختلفة النبرات ، ضحكات وقهقهات ، موسيقى شعبية صاخبة ، ورائحة السجائر والشواء تملأ المكان . وقف لحظات يفرك عينيه ، لتستأنسا بالظلمة الخفيفة التي تسود الردهة الواسعة ، وعجب لهذه الآذان التي تتحمل كل هذا الدوي الهائل ، وتستطيع بعد ذلك أن تلتقط الأحاديث وتتابعها . كان النادل جالساً كعادته بالقرب من الباب ، وعندما رآه يدخل ، أسرع نحو رجل بدين قد تساقط شعره ، يجلس وراء آلة حاسبة للنقود ، وأسر اليه كلاماً في أذنه . التقط الرجل بعد ذلك سماعة الهاتف ، فطلب رقماً ، ثم تحدث بهمس مع شخص مجهول . «أيتها الكلاب الضالة التي تنهش اللحم ، وتعرك العظم» ، أسمع همسك من بعيد ، فأشم رائحة مؤامرة تدبر في الخفاء» تطلع الى الوجوه الغائبة النظرات ، وسط سحب الدخان المتموجة في شعاع ينفذ من السقف . تجاهلته الوجوه كشحاذ يطلب صدقة بعينيه . أحس بأعينهم تحرقه من الخلف كجمرات مستعرة . حينما ينتبهون من غفلتهم ، سيركزون عليه نظراتهم من جديد ، ليجعلوا منه موضوعاً لا ينتهي لليلتهم . انعطف الى حجرة جانبية معتمة . تهالك على كرسي ، ثم طرد هواء ساخناً من فمه . صفق بيديه تصفيقاً متواصلاً . بلع ريقه مرات ومرات . حلقه جاف كقناة متهدمة هجرتها المياه .

حضر النادل . قال له وهو يفرك يديه ويمسح الطاولة أمامه :

- غيبة طويلة هذه !

- غير في الدنيا .
- الدنيا صعيبة ولا يقدر عليها غير خالقها .
- السلامة ! كلنا نجري وراءها بدون التفات .
- وماذا نفعل ؟ .. كتب علينا أن نعيشها .
- وأنت أيها الخنزير مازلت حياً !
- نحمد الله ونشكره على هذه الساعة .
- حياتك وموتك سواء في عالم ملوث
- وهل تريدني أن أنتحر ؟
- وماذا سيحدث لو انتحرت ؟
- إذن انتحر أمامي حتى أتشجع .
- لو انتحرت لكنت كبعوضة سحقت على حائط أملس .

سُمع تصفيق متواصل ينبعث من الردهة . انتبه النادل فقال للرجل بنبرة جادة

- باردة أو سخونة ؟
- وماذا يناسب هذا الجو المتقلب ؟
- الباردة جدا تقطع الأمعاء .
- والسخونة مثل بول الحمار .
- إذن واحدة باردة وواحدة سخونة .
- نعم ...

أضواء خافتة تزحف من بهو واسع ، تغمر السقف ، وتنساب على الجدران، ثم تسقط على الزليج . بدأتْ محتويات الحجرة تتميز : السقف فقد لونه الأبيض وتناثرت في أرجائه بقع رشح دكناء . وخيط الكهرباء الذي كان يتدلى

من وسطه ، قطع وعوض بمصباح أحمر مستطيل . المسامير مازالت مغروسة في أماكنها كما ثبتناها أول مرة ، في هذه الجدران التي مازالت تحتفظ بلونها الأصفر الذي ذهب بريقه . والصور التي كانت معلقة عليها ، تقبع الآن في حقيبة كبيرة بالدوار . حتى الباب نزعت دفته ، ولم يبق سوى إطاره البني . أما النافذة التي كانت تطل على الحديقة ، فقد ذهب خصاصها وزجاجها وتحولت الى مجرى هواء ، باستثناء الزليج الذي مازال محتفظاً بألوانه الزاهية ، وورود الدائرية الشكل .

«أشياء كثيرة تغيرت هنا ، ولا أحد يستطيع أن يدرك بالضبط ، كيف تتغير الأشياء من حولنا . أيتها اليد الخفية التي تلمس كل شيء . يايد الزمن التي ترحم وتظلم ! أنت شفرة تحلق فتخلق جمالاً وخيراً ، وتذبح فتسحق غصناً وزهراً . ما أقسى أن يتخلى عنك الجميع ، حتى أقرب الناس اليك ، خصوصاً عندما تخور قواك وتتلوى من الألم وحدك ، كثور يحاول الوقوف بعدما قطعت الشفرة اللامعة عروقه . دماؤك تنزف ولا أحد يضمد جراحك . شيء صعب أن تمتد أيدي الآخرين ، لتعبث بذكرياتك وتطمس معالم حياتك ، والأصعب منه ألا تجد إنساناً حقيقياً يحمل عنك بعض همومك . وددت لو كلمتني هذه الجدران الصامتة صمت المقابر ، العارية عري آدم قبل أن يرتدي ثياب الزيف ... ولكن هل يعقل أن أتحدث إليها ، وقبالتي هذا الشاب الأنيق الذي حياني منذ لحظات ، ثم جلس الى هذه الطاولة المجاورة لي . حذار أن تحكم على الناس من مظاهرهم ، ومن لم يعرفك خسرك كما يقال ، فلماذا لا أحاول ؟»

تنحنح بصوت مسموع . اعتدل في جلسته كأنه مقدم على مغامرة . نظر الى الشاب باهتمام زائد . قال له مبتسماً :

- هل تسمح لي يا سيدي بكلمة ؟

انتبه الشاب من غفلته . قذف ببقية الكأس في جوفه . التفت نحوه . ركز عليه نظرات متشككة . قال بفتور :

- تفضل ..
- من عادتي يا سيدي ألا أجلس صامتاً كتمثال .
- وأنا عكسك تماماً ، الصمت هو عادتي المفضلة .
- إذن فأنت من أنصار «السكوت من ذهب»
- الى حد ما ..
- العفو يا سيدي ربما تطفلت على خلوتك .
- أبداً .. أحياناً أجد في أحاديث الآخرين لذة لا حدود لها .
- هل يعقل أن أتحدث الى هذه الجدران وأنت بجانبي ؟
- هذا غير معقول .
- من عادتي أن أتحدث مع نفسي ، إذا لم أجد من يحدثني .
- هذه حالة عامة عند جميع الناس .
- ولكنني أتحدث بصوت مسموع ، كأن أحداً يتكلم معي .
- هذه حالة خاصة ستثير فضول الناس .
- صحيح .. النادل مثلاً قال لك إنني أحمق ، أليس كذلك ؟

يتردد الشاب كمن وقع في مأزق . يسكب من الزجاجة في الكأس ، ثم يردف

- لا تهتم بأقوال الناس .
- حاولت ولكنهم لم يدعوني وشأني .
- إذن عش حياتك بطريقتك الخاصة .

- أريد أن أنسى أخطائي الماضية .

- الظاهر أنها أخطاء لا تغتفر .

- لقد خلفت لي دوامة من الندم .

- لا تندم على مافات .

- حاولت ، ولكن الندم ظل يحفر قلبي بضربات عميقة متباعدة .

يصفق الرجل بيديه تصفيقاً متواصلاً . يحضر النادل :

- واحدة أخرى ... يتابع حديثه مع الشاب :

- تصور أن هذه النافذة التي ذهب خصاصها ، كانت تطل على حديقة .

- ولكنني لا أرى أي حديقة .

«أنت الآخر ستقول إنني أحمق ، وستلعن هذه اللحظة المشؤومة التي جمعتني بك . ستقول في سرك : الله يستر ، الحمق داء ماله دواء . نعم أعرف هذا ، لذلك فأنت لن تصدقني إذا قلت لك ، إن هذه الحجرة التي تجلس فيها الآن ، قضيت فيها أحلى أيام عمري . هنا في مكان هذه الطاولة كنا نضع زربية ، وكُنْتِ أنتِ ممددة بصدرك على وسادة واطئة تلعبين بيديك ورجليك ، وتزحفين كدودة بيضاء رخوة ، تتحرك بجسمها المتموج على ورقة توت خضراء، ثم تنقلبين على ظهرك وتحاولين رفع رأسك ، فيحتقن وجهك بالدماء ، ثم تنهارين مسترخية على الوسادة ، وتعيدين المحاولة من جديد ، كنملة دؤوب ما تفتأ تجاهد من أجل الاهتداء الى الطريق ، حتى إذا تعب عنقك ، ملت على جانبك الأيمن ، وانكفأت على وجهك ، ويداك محبوستان تحت بطنك ، فأسرع لأعدل الوسادة وأعيدك الى وضعك الطبيعي . أذكر أنك كنت معلقة على هذا المسمار الذي يواجهني . تضحكين في الصورة بفمك الأدرد ، ورأسك كبصلة

ملساء مائل على كتفك ، تظلله خصلة من زغب كزغب العصافير ، وأنت جالسة واقفة على عربتك الصغيرة التي كناقد اشتريناها لك لتساعدك على تعلم المشي .

ويوم خطوتِ الخطوة الأولى ، غمرتنا فرحة لا حدود لانْدياحها ، وتصايحنا معجبين ، ثم تسابقنا لاحتضانك ، فخطفتك من العربة وضممتك الى صدري . كنت خائفة تضطربين ، وكان قلبك يرف بعنف كقلب حمامة أفلتت بأعجوبة من بين مخالب صقر . يومها تساءلت مع نفسي : لِمَ يولد الخوف معنا ؟ ويرافقنا في مراحل حياتنا ؟ الى أن نغيب وراء الحجب الكثيفة التي تستل جذوره من قرارة أنفسنا وإلى الأبد ... »

- فيم تفكر ؟

تناهى إليه صوت الشاب كرجع صدى متصاعد من أعماق بئر .

- عندما أكون صامتاً ، أتحدث مع أشخاص يسكنون ذاكرتي .

- كنت تتحدث عن حديقة كانت هنا .

- نعم، وقد تعلمت ابنتي فيها المشي ، عند ما كانت صغيرة.

- ولكن لا توجد هنا آثار حديقة !

« ماذا أقول لك ؟ هل أقول إنهم قد حجبوا أشعة الشمس عنها ، وقطعوا أشجارها ، وداسوا على ورودها ، وأعدموا تربتها بالإسمنت والحديد. أنت الآخر لن تصدقني ، كما لم يصدقني كثيرون ، إذا قلت لك إن هذا البيت كان بيتي. ستطرح علي أسئلة كثيرة ، ستكون بالنسبة لذاكرتي ، كظفر يخدش جرحا كاد أن يندمل »

حضر النادل .جمع الزجاجات الفارغة من أمام الرجل ، وبدأ يمسح الطاولة .

سأله الرجل بحدة :

- أين هي الزجاجة التي طلبت ؟

- قال لك المعلم كفى شرباً .

أجاب الرجل بصوت غاضب ومسموع :

- ومن يكون المعلم ؟ هل يصنع الصوارخ ؟

-أنا غير خدام ، اذهب إليه وتفاهم معه.

حضر المعلم وهو الرجل البدين الذي تحدث مع شخص مجهول في الهاتف، وقال بعصبية مفتعلة :

- مالنا في هذا الصداع ؟

- أريد زجاجة أخرى .

- عروب هذا يكفي .

- أنا حر وفلوسي بجيبي ، أشرب ما أشاء .

- عروب الناس كتسمع ، وانت مول العقل .

ضرب عروب الطاولة بالكأس الفارغة ، ثم قال محتجاً :

- ولكنني لم أنشط بعد .

أجابه المعلم بهدوء محاولا إقناعه :

- الشراب راه من أجل الراحة ، ما شي من أجل الفضيحة .

بدأ الزبناء يتقاطرون من الردهة الواسعة، ويطلون في استطلاع فضولي.

أحس المعلم بحرج الموقف، وفي هذه اللحظة دخل النادل لاهثا ، وقال للمعلم :

- لقد حضر ...

ثم انحنى على عروب، وأحاطه بيده من وسطه، ثم حمله وسار به بعينين

مقلوبتين ، ورجلين مجرورتين كمريض شل نصفه ... سمع بعد ذلك باب يفتح ويغلق ، ومحرك يدور وسيارة تنطلق .

عاد المعلم بعد ذلك الى الردهة الواسعة مبتسما ، وهو يفرك يديه ، وقال للزبناء مطمئنا :

- إخ على الشراب اللي ساب .

ثم دخل الحجرة المعتمة ، وبعدما اطمأن على محتوياتها ، قال للشاب :

- كثيرون بهائم لا يعرفون فن الشراب .

- صحيح ...

- هذه هي حالة عروب منذ أن اختل عقله .

- أين ذهبتم به ؟

- التليفون والطاكسي ، هما وسيلة الخلاص منه دائما .

- الظاهر أن هناك سرا في حياته .

- الله أعلم ، واللي شاف شي يقول الله يستر .

انصرف المعلم ، ليدخل بعد ذلك النادل الذي حمل الزجاجة الفارغة من أمام الشاب وقال له :

- واحدة أخرى ؟

- يكفي ...

وبعد صمت سأل الشاب النادل الذي كان يمسح الطاولة المجاورة :

- يبدو أن عروب يعرف هذا المكان جيدا .

- هو رجل غامض وينطق بكلام غامض.

- لقد حدثني عن حديقة كانت هنا .

- قالوا والله أعلم ، إن هذا الجزء من البار كان بيته ثم باعه.

- ولماذا باعه؟

- من أجل مشروع.

- وهل نجح ؟

- خسر كل شيء ، وهو الآن يعيش وحيدا في كوخ بالدوار.

- لقد تحدث كثيرا عن ابنته.

- قالوا والله أعلم إنها هي السبب في حمقه.

- كيف ؟

- خرجت ذات يوم ولم تعد .

- ألم يبحث عنها ؟

- بحث ولكن بدون جدوى .

- إلى الآن ؟

- قالوا والله أعلم إنها تشتغل في بار بالعاصمة.

- قلت لي إنه يعيش وحيدا .. وزوجته ؟

- هربت الى البادية عند بعض معارفها.

بدا الشاب كمن يفكر، في حين قال له النادل :

- واحدة أخرى ؟

- يكفي ...

حينما خرج الشاب، واستقبله نسيم الليل البارد، خيل إليه أن ما سمعه ورآه في الحانة ، لم يكن سوى أحلام تراءت له في اليقظة. غير أن صورة مهزوزة ظلت تتراقص أمامه بإلحاح، وتشده الى واقع لم يفلح في طرده من أمام عينيه : النادل ينحني على عروب .. يحيطه بيديه من وسطه .. يحمله، ويسير به بعينين مقلوبتين ، ورجلين مجرورتين كمريض شل نصفه .. عروب وهو يتماخض كمن هاجمه قيء مفاجئ .. رغوة ذات فقاقيع ، تنساب من فمه المفتوح .. يتعالى صراخه المتواصل ، وهذيانه المحموم :

إنني لست أحمق .. دعوني أعيش ...

ما بعد الاحتراق

« أحسُ أن شيئا ما قد بدأ يحترق في داخلي. أحاول أن أحدد مكان الاحتراق بالضبط، غير أنه يخيل إلي ، أن جميع الأماكن قد احترقت، وأن البداية كانت شبيهة بتوهج عود ثقاب ، حك بعنف ضد جدار خشن »

توقف الرجل عن الحفر، ثم ترك الفأس تسقط من بين يديه. صعد من الحفرة. مسح بكم قميصه المتسخ ، خيوط العرق التي سالت على جبهه وعينيه. تثاءب وتمطى، ثم حرك كتفيه بلا مبالاة.

استعرض وجوهنا بنظرات باهتة سريعة، بدت تعكس - فيما يبدو - عجزا مطلقا عن مواصلة الحفر. نظر إلي عدة مرات :« بالتأكيد هو يريد شيئا ما » قال لي وقد طفت ابتسامة خجولة على شفتيه المثمرتين :

- سيجارة ؟

أسرعت فقدمت له علبة السجاير. التقط منها واحدة، وضعها بين شفتيه، بعدما أشعلتها له . جلس على كومة الرمل . نفث نفسا طويلا من فمه. قال وصدره يعلو ويهبط :

- الأرض هنا صلبة تتخللها الحجارة .

تدخل أحدهم، وقد ظهر عياؤه من كثرة الوقوف :

- ألا يكفي هذا العمق ؟

أجاب الرجل وهو يبصق بعيدا ، ويمسح لسانه من تبغ علق به :

- لابد من مواصلة الحفر .

ثم أخرج من جيب سرواله متراً معدنيا دائري الشكل وفتحه ، ثم أدخله في

جدار الحفرة. وبعدما نظر إلي مرة أخرى قال :

- إنها حرفتي وأنا أعرف ماذا أفعل .

« هل أبقى واقفا هكذا كالتمثال أتفرج ؟ »

خطوت خطوتين الى الأمام. انحنيت. التقطت الفأس. ضغطت عليه بيدي المضطربتين. رفعته الى أعلى ، ثم هويت به على الأرض الصلبة. تطايرت شظايا الحجر ، كرصاص طائش ، وانغرست في جوانب الحفرة.انحنيت لأرفع الفأس من جديد، غير أنهم أوقفوني، ثم منعوني من ذلك عندما حاولت ثانية . أخرجوني من الحفرة.ربت أحدهم على كتفي. سحبني من مرفقي. ابتعد بي خطوات.

قال لي برفق :

- منذ أيام وانت تجري ، اذهب واسترح .

مشيت غير بعيد. خطواتي ثقيلة متشنجة. استلقيت على الحشائش البرية الخضراء الكثيفة المتشابكة. أسندت ظهري الى سور ناصع البياض ، محاط بأشجار لم تعرف غصونها التشذيب ، فبدت موحشة مظلمة ، رغم أن الشمس المنحدرة نحو الغروب مازالت تغمر المكان بضيائها.

« وأعرف أن تلك اللحظة الفاصلة آتية لا ريب فيها ، كطوفان مدمر، ومع ذلك فأنا مازلت أترقب، أعلل النفس وأتماسك، كغريق يقلب نظراته الزائغة بين ثنايا الأمواج عله يصادف قطعة تحيي في نفسه جذوة أمل كادت تنطفئ »

راودتني رغبة جارفة في التدخين. أشعلت سيجارة. سحبت منها نفسا عميقا، ثم طردت الدخان بكل قواي. أحسست براحة أعادت الي بعض توازني. كررت العملية مرات متتابعة ، الى ان طار الضيق الجاثم على

صدري. عاد الانقباض يعصر قلبي ، عندما أبصرت أحدهم يتجه نحوي.
صافحني ، ثم قال بتودد :

- أنا الحارس ، سأذهب لإحضار بعض اللوازم .

سألته قلقاً :

- هل ستتأخر ؟
- أنا أسكن هنا.

ثم وأنا أشير نحوهم :

- هل انتهوا ؟
- تقريبا ..

انطلق في ممر ترابي ضيق ، ثم انتقل بعد ذلك الى طريق معبدة مليئة بالحفر، ومحادية لسور عال. عيناي تتعثران وهما تمران فوق كل ما يتمدد أمامي. نظراتي تقفز هنا وهناك. تخطت السور الذي ينتهي من أعلى ، بانفراجات تشبه تقويسات الحصون القديمة. استقرت على غابة بعيدة خضراء. هناك ترفرف الطيور بملء حريتها « وددت لو كنت طائرا يبسط جناحيه في الفضاء اللاّ متناهي ، ثم يحط بحرية . يغرد ويصمت بحرية. يعبر الى الضفة الأخرى ، ثم يعود بحرية . يحيا ويموت بحرية. ولا يهمه بعد ذلك إن هي أقيمت تماثيل الذهب للنسور الجارحة » الرعاة يسيرون الهوينا . يتضاحكون. يغنون أغنيات شعبية . الخرفان تثغو. تركض. تجري. تتناطح. المنظر يتغير باستمرار. الشمس جمرة دائرية حمراء، تنغمس وراء تلال متناثرة في الأفق. الرجل مازال يحفر، والفأس مازالت تصطدم بالأرض الصلبة ، محدثة أصواتا مكتومة كتأوهات نابعة من أعماق مكلومة ، وشظايا الحجارة مازالت تتطاير كرصاص طائش . طيور المساء العائدة ، تحرك أجنحتها البيضاء في أفق أحمر

يمتد في انسياب ، ثم تتيه وتختفي عن نظري « وفي كل مرة كانت تتيه فيها الطائرة وتختفي عن نظري »وأبقى وحيدا في المطار، كنت أحس أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأراك فيها يا أخي. كنت أترقب دائما أن يداً غريبة ستمتد الي ذات يوم ، تهزني في مضجعي، وصوتا يصك مسمعي : يا هذا أفق ! أخوك لن تراه » وحينما صك مسمعي صوت فرملة ومحرك سيارة يتوقف، وفتحت الباب ، فوجئت بدركي يحمل ملفاً . حياني ، ثم قال لي وهو يقلب بين يديه بضعة أوراق :

- هل تعرف التيباري ولد شويطة ؟

- نعم إنه أخي .. ماذا حدث ؟

- هل كان يكاتبكم ؟

- احتجبت عنا رسائله في المدة الأخيرة .

- كيف كنتم تعرفون أخباره ؟

- من بعض أصدقائه.

- ما هي آخر أخباره ؟

- توقفْ عن العمل

- وأين كان يعمل بالضبط؟

- في ضواحي باريس.

- إذن المعلومات صحيحة .

قدم لي ورقة ، عندما انتهيت من إمضائها ، قال لي ببرود :

- تشجع ... ثم انصرف ...

صمت ثقيل يرهق الحواس، تنبعث من ثناياه ضربات فأس منتظمة « وحينما

توقفت سيارة بيضاء أمام البيت ، ارتفع العويل فجأة ، وتقاطرت نساء الحي يتساءلن ألف سؤال وسؤال » من كان يصدق ، أن هذه الرسالة التي تستقر في جيبي الآن ، ستكون على موعد مع كاتبها في هذا المكان بالضبط . في كل مرة أفتحها يخيل إلي انني أقرأها لأول مرة :

[باريس ...

وصلتني رسالتك يا أخي . وقد أحسست من خلال سطورها أنك عاتب علي تماطلي في الكتابة اليك . والحقيقة يا أخي أنني كنت طريح الفراش في المدة الأخيرة ، وقد أوصيت أحد أصدقائي بأن يخبركم بذلك. عاودني السعال من جديد، وفي كل مرة يهاجمني فيها ، اختنق تدريجياً ، وتغشاني غيبوبة خفيفة. الثلج مازال يسقط هنا ، والبرد القارس يجمد العظام ويثقب الرئات .

إنني لم أتعود بعد على هذا الجو ، بالرغم من أنني قضيت فيه حتى الآن خمس سنوات كما تعرف. أحس مع مرور الأيام أن البرودة تتسرب الى خلايا جسمي . لم تعد مسامي تفرز عرقا، وحتى الحرارة الطبيعية لم أعد أعرفها. عندما أدخل المستشفى أستريح، ولكن بمجرد ما أعود الى التنقل اليومي في القطارات والمترو ، والجري وراء الدقائق ، يعاودني السعال بحدة متناهية. وماذا أفعل ؟ ليس أمامي سوى الصبر حتى ولو كان ذلك على حساب صحتي. أخشى أن أموت هنا وأكلفكم الشيء الكثير. اعتن بأخواتك فهن أمانة في عنقك. وصدقني إذا قلت لك إنك لن تعرف قيمة بلدك ، إلا إذا ابتعدت عنه ، وخاصة إذا أرغمتك الظروف على ذلك ، إذَّاك ستحاصرك الغربة القاتلة من كل جانب، وستحس أنك وحيد ، حتى ولو كنت تعيش وسط ملايين البشر ... الى اللقاء]

عاد الحارس يحمل حبلا ومصباحا وملفا . هو الآخر قدم لي ورقة ، ثم قال لي بتأثر وهو يشير نحو الحفرة :

- من عائلتك ؟

- نعم إنه أخي .

قال متأسفا :

- لابد من هذا النهار ...

لم أجب وإنما هززت رأسي موافقا على كلامه ، أخرج من جيبه قلما ثم قدمه لي قائلا :

- امض هنا .

قلت مستغربا .

- حتى هنا تمضى الأوراق ؟

- اليوم لابد من الأوراق ، منذ أن نولد الى أن نموت .

«ياإلهي كل شيء تعقد حتى الموت» أمضيت الورقة ، وقلت :

- ومن لا يتوفر على أوراق ؟

أجاب مؤكداً :

- ينتظر في الثلج شهوراً وشهوراً .

« تماماً مثلما انتظر أخي ستة أشهر كاملة في الثلج الى أن تمكنا من جمع مبلغ استرداده »

الآن توقف الرجل عن الحفر، ألقى بالفأس فوق كومة الرمل .

تناول ملاسة أخذ يسوي بها جوانب الحفرة، ويخرج التراب المتساقط في جوفها « اللحظة الرهيبة تقترب ، ومع ذلك فأنا أروغ عنها، أطردها أبعدها

عن عيني وعن مشارف الذاكرة ، كجثة متعفنة تطاردني برائحتها » الشمس غابت تماما مخلفة وراءها أفقا ورديا شفافاً . كل شيء انتهى. لوحوا لنا بأيديهم « وحينما فتح باب الطائرة، ونزل المسافرون ، لوح المنتظرون بأيديهم ، تعانقوا وتصافحوا وتضاحكوا ثم انصرفوا. وبقيت أنت وحدك يا أخي مسجى في جوف الطائرة تنتظرك سيارة بيضاء »

عدت أسأل الحارس وقد تحركت خطواتنا :

- كيف تحيون هنا ؟

- بخير والحمد لله .

ترددت قليلا ثم قلت متعجبا :

- بين القبور ؟

- وماذا نفعل؟ أصبحت القبور جزءا من حياتنا.

ثم أضاف وقد فطن الى اندهاشي الخفي :

- القضية بكل بساطة هي قضية تعود .

- صحيح ...

طلب مني سيجارة ثم أردف :

- تصور، أطفالي يلعبون بين القبور ..

لم أقل أي شيء ... أشعل السيجارة ثم رمى عود الثقاب.

قال وهو يشير نحو الشواهد التي تملأ المكان :

- لو فكرت جيداً لانتهيت الى أننا كلنا سكان قبور ...

- صحيح ...

- هون عليك غدا تنسى كل شيء .

- ولكن الفراق صعب .

- فرح وقرح أحببنا أم كرهنا .

« كيف ؟ هل صحيح أن الحياة لا تستقيم إلا بهذه الازدواجية ونحن نتغافل عنها ؟ بمعنى أن في تربة كل فرح تنمو بذور حزن ، وفي جذور كل حزن تتفتح وريقات فرح »

خطواتي ثقيلة متشجنة ، تزحف لتعانق اللحظة الرهيبة . الظلام بدأ يخفي الكائنات . قشعريرة عنيفة تضرب ظهري ، وتزلزل كياني . كل شيء الآن بدأ يجري بسرعة غريبة : الحارس يوقد المصباح .. الأيدي تحمل التابوت .. تلفه بحبل ، تدليه في جوف الحفرة العميقة المظلمة .. صفائح إسمنتية تسوى .. تراب ينهال .. أصداء كالنبش .. وجهي المبتل بالدموع يلامس وجوها باردة صفراء أرهقها طول الانتظار.. أبواب تفتح وتغلق .. محركات تدور .. وعندما تحركت السيارة لم أمنع نفسي من الالتفات : الحارس مازال ممسكاً بمصباحه المشتعل. ومن ثنايا ليل مشروخ،خيل الي أن هناك وجها مضيئا يطل علي كنجم يسطع من وراء غربال مليء بالخروق . وما لبثت السيارة أن ارتمت في أحضان المدينة التي فاجأتنا بأضوائها وضجيجها.

« أحس أن شيئا ما ، قد بدأ ينطفئ في داخلي. أحاول أن أحدد مكان الانطفاء بالضبط. غير أنه يخيل الي أن جميع الأماكن قد انطفأت ، وأن النهاية كانت شبيهة بجمرة متأججة ، ألقيت في ماء ، فبقي منها شيء ، ما بعد الاحتراق »

الباب الخلفي*

العاشرة ليلا، وهو لا يكف عن السير . رجلاه المتعبتان ، توزعان خطوات واسعة في دروب الدوار الضيقة المتربة. حذاؤه الكبير يغوص في كومات من الرمل الرخو. ضيق ثقيل يعصر صدره. إنه يكره هذا الظلام الحالك. في كل خطوة يخطوها ، يتوقع أنه سيسقط في حفرة عميقة. نباح الكلاب يلاحقه ويزعجه. الكلاب هنا كثيرة ، لا يخلو منها درب. نفسه تحدثه بأن خطرا ما ، يهدده هذه الليلة. إنها هناك. ربما كانت نائمة .. ربما تنتظره الآن .. إنها تسكن وحدها ، في كوخ من أكواخ الدوار العديدة. في نهاية كل أسبوع ، يقضي معها ليلة حالمة.

ولكن في الأسبوع الماضي ، نغص عليه الحراس ليلته. كان سيقع بين أيديهم، لولا الباب الخلفي لكوخها. لقد أفلت منهم بأعجوبة. هناك ترك المدينة التي اختفت معالمها تماما عن ناظره الآن. بقيت أضواؤها فقط ، تغمزه من بعيد. المدينة لا يعود إليها الصمت إلا بالليل، أما بالنهار فالكل يجري ، يلهث ، لا يلتفت، حتى الديدان الصغيرة ...

كثيرا ما يتوقف عن طلاء الحيطان بالجير، وهو معلق في سلم عال، ويتأمل هؤلاء الناس من أعلى، فيتخيلهم دواب غريبة المنظر والألوان، تتحرك هنا وهناك ، تبحث عن التفاهة ...

توقف أمام باب أحد الأكواخ. امتدت يده تدق دقات خفيفة. انتظر. لم يجبه أحد. ربما هي نائمة ، أو غير موجودة الليلة هنا . إذن ضاع كل شيء. من جديد يده تهوي على الباب الخشبي بضربات ثقيلة . هذه المرة ، سمع وقع أقدام

* نشرت هذه القصة في الأصل تحت عنوان (الرحتان من الضياع)

و سعال ، وصوتها يسأل :

- من ؟

رد بسرعة :

- أنا عباس الجيار .

صرير مفتاح يدور في قفل. فتح الباب. وجد نفسه أمامها :

سألته في تردد :

- ما الذي أتى بك في هذا الليل ؟

دفعها بعنف الى الداخل . أغلق الباب . ضغطها على قصدير الكوخ الصدئ. ضمها إليه بقوة. لعق شفتيها . إنها تقاوم كأنها لا تعرفه. دخل حجرة الكوخ الوحيدة . استلقى على ظهره فوق سرير خشبي مملوء بالحلفاء. شمعة تحترق تذوب، وهي واقفة تنظر إليه. شفتاها الحمراوان تلمعان بشكل مثير. أصباغ ثقيلة تلطخ وجنتيها. رآها تقترب منه ، ثم ترتد مذعورة ، كأنها لاحظت شيئا مخيفا. السؤال الذي كان يتوقعه منها ، أفلت من بين شفتيها بصيغة اندهاشية :

- عباس ! قميصك ممزق ، وجهك منتفخ.

لم ينطق بكلمة واحدة، وإنما امتدت يده تتحسس وجهه. نعم وجهه متورم بالكدمات. لقد خسر كل شيء في مقهى المدينة. تعب أسبوع ضيعه في دقائق معدودة. عندما احتج وأراد أن يسترد ماله بالقوة، وجد لكمات تنهال عليه من وجوه عابسة مليئة بالشعر الكثيف. سبعة أيام كاملة وهو معلق على السلاليم يطلي جدران المنازل بالجير. إنه يود الآن لو يرسم بالفحم خفية ، صور الحمير والكلاب والقرود ، على تلك الجدران التي أعاد إليها هو بياضها.

أفاق على صوتها الحاد :

- ماذا حدث لك الليلة ؟

استقرت عيناه على الشمعة التي ذاب معظمها، وقال متضايقا :

- المقهى ...

الماكرة تحملق فيه. إنها لم تفهم. دائما تدعي الجهل والغباوة .

أسئلتها المتلاحقة تؤذي أذنيه :

- لماذا جئت في هذه الساعة ؟

تأملها جيدا، ثم صرخ في وجهها :

- لأراك عارية .

- إنني خائفة.

- مني ؟

- إنهم يأتون كل ليلة.

- من هم ؟

- يبحثون عن الكلاب والأغبياء.

لمعت عيناه ، قفز من السرير، شدها من ذراعها حتى تأوهت.

قال لها لاهثا :

- قلت لك من هم ؟

- الحراس ..

- الحراس ؟ (ينفجر ضاحكا) لقد تركتهم نائمين هناك ..

- إنهم يطرقون كوخي كل ليلة .. إنهم ..

- أف .. لا تضيعي وقتي، اخلعي ثيابك ونامي على السرير .

خلعت حزامها الأسود. تذكرت شيئا، فتوقفت عن حل عقد ثوبها .

رآها تفرك أصابعها.

– ليس معي شيء .

– ولماذا أتيت إذن ؟

– (متوسلا) الأجرة القليلة لا تكفي . إنك تعرفين كل شيء .

– كيف سأعيش ؟ من أين سأدفع كراء البراكة ؟

- في آخر الشهر سأعطيك فلوسك.

- (بثورة) إنني لم أعد أثق بأحد. إنكم كاذبون منافقون ، تريدون كل شيء بالمجان.

دماء ساخنة تصعد الى وجهه. إنها تضيع الوقت. تماطل. القوة هي الحل. امتدت يده الى جيبه. بدون تفكير أخرج سكينا ثم فتحه.

- (بلهجة امرأة) اخلعي ثيابك.

عيناها تتسعان، تحملقان ببلاهة واندهاش ، في شفرة السكين اللامعة. الأصباغ الحمراء ماتت على وجنتيها. وجهها قد اكتسى بلون أصفر كالأموات . ومن بين شفتيها المفتوحتين ببشاعة ، يطل شبح صرخة مهولة. هي تعرف أنه عصبي المزاج. بحركات مضطربة أكملت خلع ثيابها، ثم استلقت على السرير، طوى السكين. انحنى يخلع حذاءه الكبير. فجأة طرقات عنيفة على الباب زعزعت قلبيهما. وقفت على رجليها. لبست ثيابها . قالت له وهي تبتعد عنه :

- اهرب من الباب الخلفي ..

– ولماذا أهرب ؟ إنني لم ..

- إنهم الحراس أيها الأحمق.

- قولي لهم ليس هنا أحد.

- سيفتشون الكوخ كله .

ثم اختفت . وضع يده على الباب الخلفي وانتظر . صوت مبحوح يسأل :

- ألم يأت عندك أحد ؟

- (بتجاهل) لم أر أحدا .

- سنفتش الكوخ .

- تفضلوا .

وقع أحذية تقترب من مكانه . فتح الباب . برد قارس يصفع وجهه . مرة أخرى سيعود الى ظلام الدروب ، خرج وتقدم بخطوات حذرة . ولكن ، أحس بشيء ثقيل يهوي على رأسه .. الأرض تدور تحت قدميه .. سائل حار ينساب على جبهته.. ثم سقط على التراب البارد .. بعد لحظات أحس بأياد قوية ، تجره بقوة وتحمله بعنف ، وترميه كصندوق سلعة في مؤخرة سيارة.

أصوات خافتة تترامى الى سمعه ، كأنها رجع صدى :

- لقد قبضنا على أحد الأغبياء.

- العاهرة ! لا تعرف أننا اكتشفنا باب كوخها الخلفي .

الحصة الأخيرة

دخل الأستاذ القسم ، ثم أغلق الباب وراءه . وقفنا دفعة واحدة احتراماً له ثم جلسنا . حيانا كعادته بإشارة من يده ، فرددنا التحية بإحناء رؤوسنا ورفعها.

اتجه نحو النافذة ثم فتحها ، ففاض نور مباغت أعشى عيوننا ، وتراءت لنا بعد ذلك أشجار ميموزا ، حاملة فوق أغصانها تيجانا صفراء . في حين ، كانت هناك أسراب من الزوش ، تملأ المكان بزقزقتها الحادة المتواصلة ، وبرفرفة أجنحتها وهي تحط وتطير في حركة دائبة .

نظر إلينا ملياً ، ثم بدأ يمر بين الصفوف بخطى متئدة . ولم تكن بذلته الأنيقة الزرقاء ، لتمسح ظلال حزن مضغوط ، يتموج في تقاسيم وجهه . ظل يتفرس في وجوهنا طويلاً ، كأنه يبحث عن شيء ضائع . أخيراً توقف في وسط القسم ، ثم قال لنا :

- أوشكت السنة الدراسية على نهايتها .

تابع سيره ، ثم توقف من جديد ، وقال بصوت متشنج :

- ماذا تفضلون أن نراجع في هذه الحصة الأخيرة ؟

مرت لحظات متوترة من الصمت ، هبت خلالها نسمات الصباح الدافئة ، عابقة بشذى رائحة ميموزا الزكية ، فتفتحت نفوسنا ، وتذكرنا الصيف وملوحة البحر ...

بدأت الأصابع ترتفع ، والاقتراحات تطرح :

- العلم والأديان .

- حسن .

- الرفق بالحيوان .

- ممكن

- حقوق الانسان .

- جميل ...

جلس الأستاذ على الكرسي . عدل بذلته . جَر ربطة عنقه الى أسفل . أسند مرفقيه الى المكتب ، ثم تدخل واضعاً بذلك حداً للاقتراحات :

- كما تلاحظون ، فإن هذه الموضوعات كلها مهمة ، إلا أنني أقترح عليكم الموضوع الأخير ، لأنه موضوع الساعة كما يقال ، ولأنه شغل بال المفكرين والمصلحين والمربين في جميع أنحاء العالم ، لدرجة أنه يمكننا القول : إذا أردت أن تعرف مدى ما أحرزته أمة من تقدم حقيقي ، فابحث عن حقوق الانسان فيها و ...

سكت الأستاذ فجأة . مد عنقه مثبتاً نظراته على آخر القسم .

انتبهنا ثم تلفتنا حوالينا . كانت هناك أصبع مرفوعة ، وعينان غائرتان تلمعان في محجريهما ، تحتهما نتأ أنف منحدر الى أسفل ، ينتهي بشفتين مثمرتين تنفرجان عن ابتسامة احترنا في تفسيرها .

- يوسف ماذا تريد ؟

- هل تسمح لي بسؤال يا أستاذ ؟

- تفضل .

- مادمنا قد خصصنا هذه الحصة الأخيرة لمناقشة حرة ، فأنا أقترح أن نبتعد عن جو الكتب . نحن نريد ما لا يوجد في الكتب . ثم إن الموضوع المختار ربما أصبح مستهلكاً ، لأننا سمعنا عنه الكثير ...

- لم أفهم .. ماذا تريد بالضبط ؟

- سيدي مبارك ؟

- كنت دائماً تعدنا بالحديث عنه .

بدأ القسم كله يضرب على الطاولات ، ويهتف بنبرة منغومة :

- سيدي مبارك .. سيدي مبارك ..

كاد الزمام أن يفلت من يد الأستاذ ، لولا أنه ضرب المكتب بقبضة يده بعنف ، فعاد الصمت كما كان ، ثم أردف قائلاً :

- كل شيء بنظام .. لاأعترض على هذا الإقتراح ، مادمت قد وعدتكم بالحديث عنه ، ومادامت الأغلبية تحبذ هذا كذلك .

والواقع أن صلتي بالموضوع ترجع الى عهد بعيد ، حينما كنت مولعاً بالأسفار ، ومشاهدة الآثار ، لأن الانسان يستفيد من تجاربها كثيراً ، ويقترب ما أمكن من الحقيقة . وهذا ما دفعني الى زيارة سيدي مبارك .

- لماذا ؟

- شغلتني قصته طويلاً ، فأردت أن أعرف الحقيقة .

- هل عرفتها ؟

- وقفت أمامها كما يقف سباح ماهر ، أمام بحر لا نهاية لزرقته .

- هل توصلت الى شيء ؟

- توصلت الى شيء واحد ، هو أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها .

- وماذا شاهدت ؟

توقف الأستاذ عن الكلام ، وبدا كأنه يتذكر صوراً قديمة مازالت عالقة بذاكرته . وكانت أسراب الزوش ما تزال تحط وتطير في حركة دائبة .

سعل سعالاً خفيفاً ، ثم عاد يقول :

- هناك تينة وارفة الظلال ، تزدحم أغصانها بعشرات الخيوط والخرق البالية المعلقة عليها . جذعها المثقوب ملطخ بأنواع من الحناء المختلفة الألوان ، والقطران وبقايا شعر . بجانبها يتمدد قبر أبيض ، يحيط به سور متهدم . وعن قرب تقف علامة طريق ضخمة ، تعلن عن مدخل المدينة . هذا كل ماشاهدت..

- هل سألت الناس ؟

- الناس كلهم يتفقون على رواية واحدة ، هي أن سيدي مبارك شخصية حقيقية ، اشتهر بالزهد والتقوى وفعل الخير ، وأنه كان يسير في الأسواق ، ويطوف بالقرى واعظاً وداعياً الى الجهاد ، ومحاربة الفساد الذي استشرى في المدن .

وعندما ضيق الاستعمار الخناق عليه ، لجأ الى الهرب والتخفي عن عيون المخبرين ، فاهتدى الى مكان خرب ، واتخذ منه مجلساً ومحرابا ، وما لبث مريدوه أن تحلقوا حوله ، الى أن اكتشف أمره ، فقتل مغدورا ، ودفن بالقرب من التينة الوارفة الظلال ، واتفق الناس على أنه من أولياء الله الصالحين ، فبنوا على قبره ضريحاً ، تخليدا لذكراه ...

- إذن هذه هي الحقيقة .

- اقتنعت في البداية ، غير أن طائر الشك ظل يحوم حولي .

- وماذا فعلت ؟

- سألت هنا وهناك حتى دلني أحدهم على فقيه في احدى القرى المجاورة .

- هل ذهبت اليه ؟

- بحثت عنه طويلاً حتى اهتديت اليه ، فوجدته شيخاً هرماً، ضعيف البصر

متثاقل الحركات . سلمت عليه وجلست .

قال لي متشككاً :

- من أنت ؟

- طالب حقيقة .

- عن أي شيء تبحث ؟

- عن سيدي مبارك .

سكت لحظات كمن يقلب أفكاره على وجوهها ، ثم قال :

- ستتعب كثيراً يا ولدي .

- أنا أستاذ تاريخ ومن حقي أن أعرف مالا يعرفه الناس .

- ستضيع عمرك لاهثاً وراء السراب .

- لماذا ؟

- الزمن يا ولدي أقوى منا جميعاً .

- كيف ؟

- هناك دائماً أسرار تدفن مع أصحابها ، ثم ترصد في قُمقم الزمن .

- وما علاقة كل هذا مع سيدي مبارك ؟

سكت الفقيه لحظة ، وعاد يفتل شريط الدوم بأصابعه ، ثم نظر الى الفضاء حيث تمتد الحصائد الصفراء ، وقال :

- ما أكثر الحكايات التي كانت تحكى لنا ، ونحن أطفال نتسامر في ضوء القمر ، بالقرب من أكواخ قريتنا . وكانت هذه الحكايات تخلط بين الحقيقة والخيال لدرجة يصعب التمييز بينهما .

إلا أنها كانت تقدم لنا - في الغالب الأعم - على أساس أنها قصص

خيالية لا تمت الى الواقع بصلة، وإنما كان الغرض منها المتعة وتزجية الفراغ ، ومحاولة إصلاح النشء في قريتنا .

وحكاية سيدي مبارك تدخل في هذا الإطار . فقد رددناها طويلاً . ثم تنوسيت مع مرور الوقت ، ولم يبق منها سوى أطياف ، كأضغاث أحلام في ذاكرة أمثالي من المعمرين الذين يبيتون مع الأموات ، ويصبحون مع الأحياء . تقول الحكاية : «تعود القادمون من القرى المجاورة ، أن يمروا في طريقهم الترابية على تينة كبيرة ، متشابكة الأغصان ، عريضة الأوراق . فكانوا يجلسون بعض الوقت تحت ظلالها الوارفة ، ليحتموا بها من أشعة الشمس المحرقة ، حتى إذا استعادوا أنفاسهم ، تابعوا سيرهم ، وهم يرون عن قرب علامة طريق ضخمة ، تقف بوقار على الجهة اليمنى من الطريق الرئيسية .

في البداية كانوا يتوقفون أمامها لحظات ، ليتأملوا لونها الأبيض الناصع الذي كان يرى من بعيد ، ورأسها الدائري الشكل الذي يتوسطه رقم 60 ، وقاعدتها الناتئة كصخرة صلدة .

وأعجب ماكانوا يعجبون له دون أن يعرفوا لذلك سبباً معقولاً ، هو أنها كانت تلمع ليلاً كعيني قط إذا ما سلطت عليها الأضواء العابرة . وعندما تقادم العهد بها ، وذهبت جدتها ، لم تعد تعني أي شيء بالنسبة لهم ، سوى أنها بداية مدخل المدينة ، وملجأ لهم أحياناً من عجاج الرياح القوية الى أن تخف ، ومن الأمطار الغزيرة الى أن تكف ...

ظلت علامة الطريق واقفة بإصرار تشهد الأحداث المتعاقبة على تلك المنطقة: استمر هطول الأمطار أسابيع متواصلة .

فاض النهر ، وغمرت مياهه الحقول والمزارع . تحول المنظر الى بحيرة شاسعة

الأطراف ، لايُرى فيها سوى ذؤابات الأشجار المتناثرة هنا وهناك ، والنصف الأعلى من العلامة الذي ظل يدل على الاتجاه الصحيح للطريق . ثم صحا الجو فجأة ، فبدأت المياه تنحسر شيئاً فشيئاً ، جارفة معها التراب والأوحال ، الى أن ظهرت الطريق من جديد ، فعادت اليها الحركة كما كانت أول مرة ، وبقي أساس العلامة منخوراً تتخلله ثقوب وتجاويف .

وحدث أن زحف على المنطقة جفاف عنيف ، فهجم على الطبيعة يقتلها بصمت : أيبس خضرتها ، وهصر عودها ، وخنق تربتها . ولم يفلت من عبثه سوى بعض الأماكن المنحدرة الرطبة التي ظلت بها بقية مياه ونتف أعشاب .

ومالبث الرعاة أن توافدوا على تلك الناحية ، فأقاموا خيامهم بالقرب من التينة الوارفة الظلال ، وانتشرت قطعانهم في السهل المعشوشب . وذات مساء هبت رياح هوجاء ، فتطايرت الرمال ، وجرى العجاج وأظلم الجو ، واقتلعت الخيام ، فهرب الرعاة فزعين يحتمون بما وجدوا بالقرب منهم من ملاجئ ومخابئ إلى أن سمعوا دوياً هائلاً اهتزت له الأرض ، أعقبه صراخ حاد ثم صمت ... في الصباح عندما بدأ الرعاة يبحثون عن قطعانهم ، لاحظوا أن علامة الطريق قد سقطت بفعل العاصفة ، وعندما اقتربوا منها أكثر شاهدوا يدا آدمية تبرز من تحتها ...»

سكت الفقيه ، وطلب مني أن أملأ له القفة الفارغة بالدوم .

وعندما عاد يفتل الشريط بأصابعه سألته : ماذا ؟ ...

دق الجرس فجأة . سكت الأستاذ ، ثم انتبه الى ما حوله ، وقال لنا :

- من أراد أن يخرج الى الاستراحة فليتفضل .

خرج التلاميذ متدافعين متصايحين . وبقينا نحن الخمسة ننتظر . أغلقنا

الباب واقتربنا من المكتب . سأل يوسف :

- ماذا حدث بعد ذلك ؟

قال الأستاذ وهو يقف مستعداً للخروج :

- أجابني الفقيه : «تعاون الرعاة حتى رفعوا العلامة الضخمة ، وزحزحوها عن مكانها ، ثم قلبوها فتدحرجت بعيداً ...

- ماذا وجدوا تحتها ؟

- الراعي مبارك مسحوقاً بطريقة بشعة .

- الراعي مبارك ؟

- ولماذا الدهشة ؟

- إذن فالراعي هو ...

- هكذا تقول الحكاية والله أعلم . ثم ألم يكن جل أنبياء الله رعاة ؟

- بلى ...

- وهل الصلاح والتقوى مقصوران على عبد دون عبد ؟

- أبداً ، أبداً ...

- لا تعرف أين نجد الخير يا ولدي . فقد نجده في أمّي لا يعرف قراءة ولا كتابة ، ونفقده في عالِم مثقف .

- ولكن كيف حدث كل هذا الذي نراه اليوم أمامنا ؟

- اجتمع أهل القرى المجاورة ، وأجمعوا على دفنه بالقرب من التينة الوارفة الظلال ، وأحاطوا قبره بسور . ثم وضعت شمعة أعقبتها شموع ، وعلقت على التينة خرقة أعقبتها خرق ...»

دق الجرس من جديد . بدأ التلاميذ يدخلون . سكت الأستاذ ثم انتبه الى ما

حوله . قال لنا وهو يغادر القسم :

- عطلة سعيدة والى اللقاء ...

تبعه يوسف ونحن في أثره ، ثم سأله :

- وسيدي مبارك ؟

- مازال القادمون من القرى المجاورة حتى الآن ، يتوقفون لحظات تحت التينة الوارفة الظلال ، يستعيدون خلالها أنفاسهم ، ويضعون الشموع بالقرب من السور المتهدم ، ثم يتابعون سيرهم في اتجاه المدينة ، وهم يتأملون علامة الطريق الضخمة التي تقف بوقار بجانب الطريق الرئيسية ، وينوون بأن جميع ما يتمنونه سيتحقق ذات يوم لا محالة ...

حينما خرجنا ، وسرنا في اتجاه بيوتنا . توقف يوسف عند ملتقى طرق ، وقال لنا وهو يشير نحو الأفق البعيد :

- لابد لنا من زيارة سيدي مبارك ذات يوم .

فهززنا رؤوسنا علامة على الموافقة .

اليد التي لم تمتد

لا يعرف بالضبط متى وكيف حدث كل هذا . ومع ذلك فإن الشيء الذي مازال يذكره بوضوح ، في تلك اللحظة وهو محلق في السماء ، أنه حدث في ساعة متأخرة من الليل ، ثم بدأ يهوي بسرعة من عليائه ، الى أن ارتطمت قدماه بالأرض .

وجد نفسه أمام فضاء لا متناهي ، يتردد في أرجائه صراخ بعيد متقطع ، كرجع صدى هزيم الرعد . الفضاء يتفجر من سمائه وهج ساطع،بلون أصفر فاقع تتوسطه نافذة كبيرة بحجم الباب ، ذات ستائر سوداء ، يسدها زجاج مضبب ، وقضبان حديدية صدئة . ضوء أزرق خاطف ، يلمع فجأة خلف النافذة، يخترقها بعنف ، يرتج الاطار ، ينكسر الزجاج ، وتتناثر صفائحه الحادة ، لتنغرس كرماح هاوية في قلب أرض رخوة . هبات من ريح باردة ، تنساب عبر القضبان الحديدية ، تقذف بالستائر السوداء بعيداً،لتلامس وجهك الثلجي . أشجار قصيرة عارية ، بعضها يبدو كجثث محنطة ، والبعض الآخر يقف كأصابع اتهام موجهة نحو السماء ، بالقرب منها تتمدد أوصالها المقطوعة المرمية على رصيف محطة مهجورة . قطار خال من الركاب تقريباً ، يعبر كلمح البصر . نوافذه مضاءة يتسرب عبرها هواء بارد ، يجمد الأطراف ويتلاعب بستائر سوداء . ضوء أحمر يتمايل هنا وهناك . يتوقف القطار بغتة وبدون سابق إعلام، تقذف من مكانك،وترتمي على المسافر الجالس أمامك . تعتذر له . العجلات مازالت تحتك بالقضبان الحديدية ، فيتطاير شرر لهيب أحمر ، وتسمع وسوسة حادة تصك الآذان . ها أنت ذا تنزل وحيداً من القطار بعدما سبقك الرجل

الأنيق الذي ارتميت عليه ، الى النزول . تتجه نحو باب الخروج ، فيستوقفك رجل يضع نظارتين سوداوين على عينيه . يسألك :

– ورقة تعريفك ...

تبحث عنها في جيوبك فلاتجدها . جميع الأوراق ضاعت منك،حتى ورقة الامتحان وتذكرة السفر . أنت لا تعرف بالضبط متى وكيف حدث كل هذا . لم تعد تذكر أي شيء . ماذا حدث لك ؟ هل فقدت ذاكرتك ؟ «يا إلهي هل ما يجري أمامي الآن حقيقة ، أم أنني أعيش حلماً مروعاً لم أستيقظ منه بعد ؟ والى متى سيمتد بي هذا الحلم ؟ »

– ليست معي ورقة تعريف .

– إذن تعال معنا .

– الى أين ؟

– حيث سنتأكد من هويتك .

– ولكن ماذا فعلت ؟

– ستعرف عند ما تصل الى هناك .

لاشك أنكم تمزحون ، تدعون الجهل ، تحتفظون لي بمفاجأة سارة بمناسبة السنة الجديدة . أليس عصرنا عصر المفاجآت والكذبات المضحكات ؟ أنتم لا تعرفونني ؟ مستحيل ! إنني ولدت هنا . هذه المدينة بشوارعها وأحيائها ودروبها تعرفني كما أعرفها . غريب أن يعرفني الجماد الذي لا يعقل ، ويعقد معي صلة حميمية ، وينكرني أصحاب العقول حتى لكأنهم لم يروني قط . كم رأيتكم ، وكم سلمت عليكم ، وكم تفرست في وجوهكم ، وتفرستم في وجهي . إذن ما فائدة هذا الوجه الذي أحمله معي منذ سنوات خلت إذا كنتم لا

تعرفونني ! من أكون إذن ؟ لست أيها الوجه سوى صورة باهتة ، لعالم قديم يتغير باستمرار ، ولا يستقر على حال ...

أربعة رجال يقتربون منك . تضحك ملء شد قيك . هيا تفضلوا ماهي مفاجأتكم ؟ الرجال لا يضحكون . يقتربون منك أكثر فأكثر . فكرت في الهرب . رجلاك مسمرتان في الأرض بمسامير كبيرة . تصرخ مستغيثاً . صوتك هرب منك ، وأصبت ببحة خانقة . أنت الآن محاصر من جميع الجهات.

هجموا عليك . حملوك الى سيارة سوداء . عصبوا عينيك بعصابة سوداء . انطلقوا بك الى مكان مجهول . فتح الحارس الباب . دفعك بعنف الى الداخل قائلاً :

- انتظر هنا حتى يتعرفوا عليك .
- يتعرفوا علي ؟!
- الظاهر أنك متهم .
- متهم !
- لا يأتي هنا إلا المتهمون .
- تذكرت ، إنني لا أحمل معي ورقة التعريف .
- هذا خطأ .. لو سحقتك شاحنة مثلاً ، فكيف سيتعرف عليك الناس ؟
- صحيح .. ولكنني ولدت هنا ، والكل يعرفني .
- قل لهم ذلك عندما تقف أمامهم .

أغلق الباب بالقفل وانصرف ...

الحجرة ضيقة مظلمة تغشاها رطوبة مقيتة . جدرانها المبللة برشح المجاري المهترئة قد اسود جيرها ، واعتورتها ثقوب وشقوق عميقة . العفونة تغطي

أرضيتها بطبقة لزجة سوداء ، تجعل الأقدام تميد هنا وهناك،كلما حاولت المشي عليها . نافذة كبيرة سوداء بحجم الباب ، مكسورة الزجاج ، تستقر بالقرب من السقف ، يتسلل عبر قضبانها الحديدية الصدئة،هبات من ريح باردة،لولاها لكنت قد اختنقت ، وسط هذا الهواء النتن الذي يهاجم رئتيك ، برائحته القديمة الممزوجة بدخان السجاير والمراحيض .

الصراخ البعيد المتقطع،يتسرب عبر الجدران السميكة ، والأبواب الموصدة ، ليستقر داخل أذنيك المتعبتين ، من كثرة الانتظار والصمت والترقب .

طالت جلستك على هذا الكرسي الإسمنتي الطويل البارد كقطعة ثلج ، والذي يتوسط هذه الحجرة المظلمة . حزمة من أشعة الشمس تتسلل عبر القضبان ، تستقر على وجهك ، تحرق عينيك . حاولت أن تتقيها بيديك غير أن النور ظل يتسلل عبر فروج أصابعك . برودة قاتلة تسري من الثوب الى اللحم، ولعلها قد وصلت الآن الى العظم ، وقشعريرة عنيفة تهاجم ظهرك ، وتجعل فمك يتحلب بلعاب غزير ، سال على صدرك علامة على غثيان مفاجئ .

أفرغت فمك ، ثم قمت وأخذت تمشي جيئة وذهاباً ، علك تسترجع شيئاً من دفء يعيد اليك توازنك الذي كدت أن تفقده . الصراخ مازال يعلو ويخفت ، يهاجم أذنيك بشراسة كلب ملحاح ، ثم ينقطع ليعود من جديد ...

فتح الباب بعنف ، حتى اصطدم بالجدار محدثاً فرقعة عالية .

ظهر الحارس . أشار اليك :

- اتبعني ...

سرتَ وراءه في ممر ضيق ، ثم صعدتَ سلماً قصيراً، يفضي الى حجرة بابها مغلق . قال لك :

- انتظر هنا حتى ينادوا عليك باسمك .

سمعت اسمك بعد لحظات . فتحت الباب ودخلت . حجرة واسعة مضاءة بمصباح باهت . أجلسوك على كرسي أمام طاولة ، تسقط عليها دائرة ضوء من مصباح كهربائي متوهج . فوقها أوراق مبعثرة ، وملفات متراكمة ، وهاتف أسود .

بعدما انتهوا من تسجيل معلومات عنك ، تناهى إليك صوت من وراء نظارتين سوداوين :

- لقد احترت في أمرك ..

- لم أفهم يا سيدي !

- أنت متهم .

- متهم !! وبأي شيء تتهمونني ؟

- بالسرقة .

- السرقة ! حاشا لله أن أسرق يا سيدي .

- شيء محير أن يسرق طالب يدرس القانون .

- لاشك أن هناك خطأ ما .. أرجوكم أن تتأكدوا .

- طيب سنرى ...

ضغط على زر مثبت في الطاولة . أطل الحارس فأعطاه إشارة خاصة . فتح الباب بعد ذلك ، وأدخل رجل أنيق أجلسوه في مواجهتك . سألك الشرطي :

- هل تعرف هذا الرجل ؟

- ربما سبق لي أن رأيته .

- تذكر جيداً ، أريد جواباً محدداً .

- آه تذكرت إنه فرنسي .

- كيف عرفت ذلك ؟

- كان يجلس قبالتي في نفس المقصورة .

- هل تحدثت معه ؟

- سألني بالفرنسية عن المحطة المقبلة ، ثم تبادلنا الحديث عن جمال طبيعة بلادنا المشمسة ، وعن المطر الذي مازال يسقط ببلاده .

- هذا الفرنسي يتهمك بسرقة حافظة نقوده .

- هذا اتهام خطير .. أرجوكم أن تتأكدوا .

قال الشرطي للفرنسي :

- هل أنت متأكد بأنه هو السارق ؟

ظهر التردد على الفرنسي . حك جبهته ، ومرر يده على شعره ، ثم قال :

- ربما لأنه هو الوحيد الذي لامسني قبل النزول .

- هل لامسته ؟

- لا أنكر ذلك ، لأنني فقدت توازني عندما توقف القطار فجأة فتهاويت عليه .

- إذن هناك احتمال وقوع السرقة .

- غير ممكن .. فتشوني إذن ..

- متأسف ، التفتيش يكون في مكان الحادث .

- أنا بريئ يا سيدي .. ربما نسي حافظته في بيته .

قال الشرطي للفرنسي :

- ربما نسيت حافظتك في بيتك ..

- لست أدري .. ربما .. ولكن ..

- هل لديك هاتف في البيت ؟

- نعم ..

- أرجوك لابد من التأكد .

أدار الفرنسي قرص الهاتف الأسود عدة مرات ، ثم تناول السماعة وتحدث مع شخص آخر . وضع السماعة بعد ذلك ليقول بنبرة مرتبكة :

- أخبرتني زوجتي بأنني نسيتها فوق مكتبي .

تصاعدت الدماء الى رأسك ، واحتقن وجهك ، وداهمك شعور بالبكاء . قلت محتجاً :

- اتهام خطير ، ولابد من رد الاعتبار لي .

قال لك الشرطي مهدئاً :

- هذه مهمتنا .. دعنا نتصرف ..

أخرج الفرنسي من جيبه ورقة مالية مرتفعة القيمة ، وقال للشرطي :

- متأسف .. أرجو أن يقبل مني هذا التعويض .

أجبت باحتجاج :

- إن كرامتي لا تقدر بثمن .

قال لك الشرطي :

- نحن هنا معك .. ولكن فكر جيداً قبل أن تتخذ أي قرار ..

اقترب الفرنسي منك ماداً اليك الورقة المالية،على أمل أن تقبلها منه . أشحت بوجهك عنها .. في قعر الحجرة المظلم تراءت لك أمك وهي منحنية على غسيل الجيران .. وضع الفرنسي الورقة المالية أمامك على الطاولة ... أشحت عنها من جديد ، أصابع أمك المتورمة ، ابيضت وتآكلت بفعل فرك

الثياب والصابون والماء .. الى متى ستظل توقظك كل صباح ، لتطل عليك بوجه قد غزته التجاعيد المبكرة ، ولتضع ورقة مالية على طاولتك ؟ نظرت الى الورقة المالية شزراً .. هي ذي ترقد أمامك على الطاولة جديدة وجميلة ، لم تطمس الأيادي والجيوب رسومها العجيبة ، وألوانها الزاهية وكتابتها الفاخرة وأرقامها المنسقة . الى متى سيظل إخوتك ينامون على أسرة عرجاء مكسورة الضلوع ؟ .. لامستها بأصابعك .. ابتسم لك الفرنسي .. قشعريرة عنيفة تسرى في ظهرك .. جحظت عيناك .. بدأت يدك تمتد نحوها وتضطرب .. تمتد وتضطرب .. فوجئت بيد تشدك وتهزك .. تناهى الى سمعك :

- خليل .. خليل .. بسم الله عليك ..

فتحت عينيك : كانت الغرفة مضاءة ، والكتاب ساقطاً على صدرك ، والنافذة مفتوحة ، يتسلل عبر قضبانها الحديدية الصدئة هواء بارد يتلاعب بستائر بيضاء ، ووجه قد غزته التجاعيد المبكرة منحن عليك .

- كان عليك أن تغلق النافذة وتطفئ الضوء .

- سرقني النوم فلم أنتبه يا أمي .

- هذا الامتحان أنساك كل شيء حتى عقلك .

- وماذا أفعل ؟ السنة النهائية في القانون صعبة جداً .

- متى تنجح وتتوظف ، لأستريح من غسيل الجيران ؟

- سأبذل كل ما في استطاعتي .

- كانت يدك تضطرب أثناء نومك .

- رأيت ذلك الحلم القديم الذي رويته لك أكثر من مرة .

- اللهم اجعله دائماً خيراً .

- أحيانا يختلط علي الحلم بالحقيقة يا أماه .

- أكثر من قراءة آية الكرسي فهي حجاب .

- إنني أقرأها باستمرار .

- هيا أسرع حتى لا يفوتك قطار الصباح المتوجه الى العاصمة .

عندما توقف القطار ، وغادرت المحطة ، فوجئت بسيارة سوداء تقف بجانب الرصيف ، بداخلها أربعة رجال يضعون نظارات سوداء على أعينهم . خيل إليك أنك تعرفهم لأنك رأيتهم من قبل .

« يا إلهي الى متى سيمتد هذا الحلم » فكرت في الهرب .. رجلاك مسمرتان في الأرض بمسامير كبيرة - تصرخ مستغيثاً .. صوتك هرب منك .. على باب المحطة ، تراءت لك امرأة تحمل وجهاً متعباً ، قد غزته التجاعيد المبكرة ، تستوقف الخارجين بأصابعها المتورمة المتآكلة متسائلة:

- هل رأيت ابني خليل يا سيدي ؟

- الله يستر .. أنا لا أعرفك ولا أعرفه !

- ابني خليل لم يعد يا سيدتي .

- الله يسهل ...

- منذ أسبوع وأنا أبحث عن خليل يا ولدي ...

- لا تخافي عليه .. لابد من أن يعود .

وبقيت تنتظر تلك اليد ذات الأصابع المتورمة المتآكلة ، علها تمتد إليك ، فتشدك وتهزك ، لتفتح عينيك بعد ذلك على غرفة مضاءة ، ونافذة مفتوحة ، إلا أنها لم تمتد هذه المرة .. فكرت في أن تقرأ آية الكرسي التي تحفظها ، غير أنها استعصت عليك ، حاولت أن تتذكرها مرة أخرى ، فلم تطاوعك ذاكرتك .. في حين ظل الرجال الأربعة يقتربون منك ، وأنت تتراجع ، تتراجع الى أن صدك سور بارد ...

محتويات المجموعة

تم الطبع بمطابع

افريقيا الشرق

159 مكرر شارع يعقوب المنصور الهاتف : 25.98.13 - 25.95.04 - الدار البيضاء

«... أما بالنسبة للشكل ، فالظاهر أنني لم أستقر على شكل معين في كتابة هذه القصص ، إذ إن لكل قصة شكلا مناسبا لها ، من الصعب تعليل سبب اختياره على غيره ، وإن كان واضحا أنني حاولت ما أمكن تجاوز الشكل الكلاسيكي ببنائه المتعارف عليه في كتابة القصة.

ولعل هذا ما يعكس حيرتي وقلقي ، وبحثي المتواصل من أجل الاهتداء إلى أشكال جديدة تساير اللحظة التاريخية ، إذ المفورض في الكاتب مواكبة عصره ، ومسايرة القضايا الأدبية والفكرية الرائجة فيه عن اقتناع لا عن اتباع ...»

ترجمة المؤلف - محمد قنديل بعاير

- ولد بمدينة القنيطرة - المغرب - سنة 1944 .
- حصل على الإجازة في الأدب العربي سنة 1968 من كلية الآداب بفاس.
- نال شهادة الدروس المعمقة في الأدب الحديث والمعاصر ، ونقدهما سنة 1975 من كلية الآداب بالرباط.
- أستاذ للغة العربية - عضو في اتحاد كتاب المغرب.

مؤلفاته : "الجثث والرائحة " - 1968 - قصة

"ويأتي بعدنا آخرون" - 1981 - مجموعة قصصية.



افريقيا الشرق

159 مكرر، شارع يعقوب المنصور
الـدار البـيضـاء
25.95.04
25.98.13